تاريخ قطر الاعمال
مجمع مقدمة من المؤلف
خاصّة بالطبعة العربية
ترجمة
إبراهيم بلال
تاریخ قطعه‌ی
مَادَلِين هورس ميادان

المحافظة الأولى للمنتزح الوطنية في درس

باحثة علمية في المركز الوطني للبحوث العلمية

تاريخ قطع كاج

مَعَ مَقْتَدَمَةٍ مِنَ المَؤَلف

خاصّة بالطبعة العربية

مَرْجِعَة

ابراهيم بحش

نشورات محولات

بيروت، باريس
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات هويدات
بِرَايْس
وذلك بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية في فنِسا

Presses Universitaires de France

الطبعة الأولى 1981
مقدمة

قليلة هي، في التاريخ، الأسماك التي. كما قرطاج، شهيرة.
وقليلة كذلك، تلك التي، مثلها، من الناحية العلمية، مغمورة في
الإبهام.

فجلس «كانون» في روما. لا يمكن فهمه إلا من خلال
الخوف والقلق اللذين كانا يحتالان الحكم الإمبراطوري الروماني
ازاء النمو الاقتصادي والفكري في قرطاج.

هذه التي من صور، والتي حملها إلى افريقيا فينيقيون هاوبون
ين، الفتنة الدينية، عرفت أن تفرض لا مفاهيم اقتصادية جديدة
دحسب، بل شرعنة قاها الفلسفة اليونان احدي أهم الشرعات في
النصوص القديمة.

أما الفينيقيون، وهم كانوا أبرز بحار تلك العصور، وجعلهم
هم الجغرافي على مفترق الطرق الاقتصادية والعسكرية في
أنهم، فكانوا على اتصال بالحضارات الشرقية الكبرى. وما
فما أفريقيا، كان من العالم الغربي - وهو يومها لم ينضج بعد
ساته - أن مهد لهم إمكانية أن يخلقوا مدينة تفتح فيها

5
تجاربهم ومواهبهم الذكية، دون أن يشتكوا الامبراطوريات الشرقية والمصرية.

حول قرطاجة البونية، وأمپراطوريتها، صدرت دراسات عديدة في فرنسا والخارج. لكن تفرّق هذه الأعمال، والتخصص الضيق فيها، جعلها محصورة بالقراء الضالعين. وأبرز تلك كتاب المؤرخ الراحل ستيفان غزل، وأجزاؤه الحسنة الأولى عن قرطاج، وتختص كل جمع للمعلومات عن قرطاج حتى 1924. أما المتاحف التي تخّر آثاراً من قرطاج، فأبرزها اثنان: متحف باردو في تونس، والمتحف الوطني في قرطاج. وثمة آثار أخرى مبعثرة، مع نصوص بونية، في «لوفر» باريس، و«بريتش ميوزيوم» لندن، ومتحف بيروت؟.

هذا الكتب بين يديك، تحتضن سلسلة من المصادر والمراجع. وهي لا تخّر إلا الكتب التي تستكمل كتاب غزل، وأبرزها تلك التي تعنى بالأعمال التنقيبية عن الآثار، بعد 1924، وثلك التي تعنى بقرطاج الرومانية.

يبقى، أن هدف هذا الكتب، إيجاز المسألة القرطاجية اليوم. لذلك، سلفت لا إلى المعطيات التاريخية فقط، بل إلى خلاصة أعمال المتقنيين التي حملت إلينا نصوصاً وتفاصيل من أرض قرطاج نفسها، خلال الحملات التنقيبية التي ادارتها بغتة الإرسالية الفرنسية.
في تونس، قبل فترة، وخلال ما تقوم به اليوم حملات الاونسكو الدولية، وما تطعه المؤسسة الوطنية للفنون والآثار في تونس.

ماديلين هورس

المحافظة الأول للمتاحف الوطنية في برسا

باحثة علمية في المركز الوطني للمحور العلمية
المدخل

قالَّ عرف اسم في التاريخ الشهرة التي عرفه اسم قرطاج. ومع ذلك، قالَ أهل اسم مثله من الوجهة العلمية.
فلامدية التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ وفي الحضارة الغربية، خلال الألف الأول قبل الميلاد، تبعث في الذكر الحروب الفونية ونبيلها، وتلفت انتباهنا إلى رواية «سلميوو» لغوستاف هولبير» والى نصيحة «كاثون» التي أوقفت مجلس الشيوخ في روما: 
«يجب أن ندمر قرطاج»

هناك عدد كبير من الدراسات تناولت تاريخ قرطاج الفونية وامبراطوريتها، ونشرت في فرنسا وخارجها، لكن تفرّق هذه الدراسات، والتخصّص المفرط فيها، يجعلها صعبة المنال لدى القراء. وعلى الرغم من ذلك، لا بدّ لنا من أن نذكر «لستيفان جزل» مؤلفه الضخم الذي أفردت أجزائه الخمسة الأولى لقرطاج. وتؤلف هذه الأجزاء مجموعة المعارف العلمية السابقة لعام 1924.

وهناك متحفان كبيران يعرضان الآثار الصادرة عن قرطاج. هما متحف «باردو» في تونس، ومتحف قرطاج الوطني. ويمكن مشاهدة بعض الآثار والنصوص الفونية في متحف «لوفر» في باريس، وفي المتحف البريطاني في لندن. وفي متاحف أخرى.
في نهاية هذا الكتاب، عرض للمراجع. لم تُرّد فيه سوى الدراسات التي تكلّف مؤلّف «جزل» ولا سيّا المتعلّقة منها بالأبحاث الأثرية، التي أُنجِزت منذ عام 1924، أو تلك التي اقتصرت على قرطاج الرومانية.

ويمكن هدف هذه الدراسة في تلخيص قضية قرطاج في الوقت الحاضر. وسنتراعي فيها ليس المعطيات التاريخية وحسب، بل أيضاً المعلومات التي أتى بها علماء الآثار، وخاصة تلك التي حصلنا عليها بواسطة الآثار والنصوص المستخرجة من باطن أرض قرطاج، عند حملات التنقيب الكثيرة. ولقد تمّت هذه الحملات في الماضي بفضل سّعفي «إدارة الآثار» وبعثة الآثار الفرنسية في تونس، وهي ت تقوم اليوم بفضل أعمال «معهد تونس الوطني لعلم الآثار والفنون»، وعلى يد علماء الآثار الذين عكّموا على توضيح القضية التي يطرحها موقع قرطاج.
الفصل الأول
موقع قرطاج الجغرافي والتاريخي

اسم قرطاج الفينيقية "قرت حدشت" يعني المدينة الجديدة. أسسها سنة 814 قبل الميلاد. فينيقيون أتوا من صور وأطلقوا كلمة "فوني" على فينيقيي الغرب وعلى إنتاجهم.

تقع قرطاج على بعد 16 كيلومترا تقيبا من الشتاء الشرقي لمدينة تونس، المدينة الإفريقية الحالية، على شبه جزيرة واسعة، يحدها من الجنوب خليج تونس، ومن الشرق البحر، ومن الشتاء جزيرة سوكرا المليئة والممتدة على الشاطئ. وينتشر شبه الجزيرة هذا من الغرب بالقارة الإفريقية، وينتهي عند البحر بنتو صخري ارتفاعه 150 متراً، وينقسم إلى قسمين شبه متساويين: في الشتاء سواحل مستوية، تحت سهلا واسعاً وخصباً، قليل السكان في القديم، ولكن تغطيه بساتين غناء وأراض زراعية.

وفي الجنوب الشرقي لهذا المرتفع الصخري الذي تقوم عليه في الوقت الحاضر قرية سيدي بوسعيد. يمتد سهل تتحلل الأودية 10.
الصغيرة. وثلاث تلال تغطّيها الخرابين: هناك كان يقع قلب مدينة قرطاج.

وشبه الجزيرة ذو تكوين جيولوجي قديم جدًا، فهو يؤلف جزءاً من سلسلة جبال أطلس التلي. ويعتبر أحد امتدادات القصبة. وإذا ما اعتبرنا تكوين شبه الجزيرة تغيير طفيف منذ الأزمة البعيدة، فإن العكس من ذلك، تبدل شكل السواحل تدليلاً واضحاً تحت تأثير الرياح البحرية ورسومات سطر بحر جردة (نهر بجردة القديم).

فكانت الأمواج تضرب القسم الشمالي من شبه الجزيرة. وبحيرة "سوكرا" غير متميزة عن البحر الذي يفصلها عنه، في أيامنا هذه، شريط واسع من الرمل.

1- المناخ

مناخ قرطاج معتدل حار، يشبه إلى حد بعيد مناخ تونس الحالية. ولربما كان أشد رطوبةً، لأن منطقة تونس لا تتلقى في الوقت الحاضر إلا 450 مليوناً مكعبةً من مياه الأمطار. ويوفر هذا المناخ لقرطاج مرونة متوسطة. كالحيوب والزيتون والخضار وغيرها. وليس تفاوت درجات الحرارة فيها كبيراً جداً بل يلطفه جوارها للبحر. ومعدل سقوط الأمطار يبلغ مئتين يوماً في السنة. ماذا يجعل مناخها صحيأً وقليل الرطوبة. وفي أغلب الاحيان تعرّض
Carthage et les colonies phéniciennes d'Ocident

Carthage والمستعمرات الفينيقية في العرب
منطقة قرطاج لريح شماليّة غربيّة، كما ان نسيم البحر يخفّف من وطأة السموم عند هبوتها.

٢ - الثروة النباتية

tغطي شبه الجزيرة نباتات هزيلة كالسائب والعليق المتوسطي والوزال واكليل الجبل. غير أن الكتاب الأقدمين يؤكدون أن غابات واسعة كانت تتبّدّ قرب المدينة، وتنشر فيها أشجار الصنوبر والعرع والأرز والسندان وغيرها.

وعرف القرطاجيون بالزراعة. فالبساتين والحدائق التي أحاطت بقرطاج في الحقبة الفونية، أثارت إعجاب الرومان عندما وطوا أرض أفريقيا. وكانت زراعة الحبوب والكرمة والزيتون وسائر الأشجار تعطي شال شبه الجزيرة، والجزء الأكبر من الساحل التونسي. أما أرض هذا البلد التي تبدو قاحلة فيمكنها ان تنبت بكثرة مذهلة. ويكاد مظهر الريف القرطاجي يملأ إلى حد بعيد هيئة المناطق المرية في شبال تونس الحالية، لّم يكن خلياً من الصبار والبوكابوش وسائر النباتات المدارية، التي نقلت زراعتها حديثاً.

٣ - الثروة الحيوانية

تَّنَوعت الثروة الحيوانية. وكَررت الحيوانات المفترة كالأسد والضبع وابن آوى، فكانت مصدر غني لقرطاج. حيث يقص
عليها لتنصِّل في ألعاب السيرك.

ووجد أيضاً، في الحقبة الفونية، الزراعة وحرس البحر والفيل والمعامة. ونَفَدْحُ لنا النصوص أن جوار المدينة كان من المناطق الزاخرة بالطرائد. وما يثبت أقوال المؤلفين القدماء تلك الألواح النقوشية التي تُمثِّل الأرب والجبل والسُهان ودَجَّاجة الماء. ولم يعرف القرطاجيون الجمل. بينما راحوا يترّون بأعداد كبيرة الحصان النوميدي الأصيل واللحار والبلح والثور والعزة وخاصة الخروف.

وتكثر الأسماك في شواطئ منطقتي قرطاج، وخصوصاً في خليج تونس. ولا يختفي علينا أن صيد السمك أسهم إسهاماً كبيراً في تموين المدينة حيث يتوفر الطون والسُدرين والحنكليس وانتشرت على السواحل أصداف المروكس التي يستخرج منها صين الأرجوان، مثلما انتشرت في أفينقيا.

ولاأحتوي باطن الأرض في قرطاج وجوارها على مكامن معدنية. لكن حجارة البناء كان يُذْوي منها من مغاليق الرأس الطيب الذي يقع في الطرف المقابل لخليج تونس. كما استخرج الرياح من مغاليق «شمتو» الواقعة غربي تونس. وحتى الفخار لم ينذر في قرطاج. إذ اكتشفت مصانع خزافيين استعملوا التراب المحلي.

4 - الإنتونغرافيا

ما يؤكد وجود السكان في المناطق الساحلية من تونس. في حقبة
ما قبل التاريخ، بعض الأدوات والتحف التي جمعت خاصة في الجنوب، كمنشور الصوان وBilly هواي النعام المزين بالرسوم وغيرها.

وفي الفترة التاريخية، أقام البربر في الأراضي التي وقعت في وقت لاحق تحت سيطرة الفينيقيين، وعاشوا بداية في الجنوب، وتعاونوا الزراعة في الشلال، واعتمادوا الزراعة الأساسية، قبل تدفق الفينيقيين على قرطاج، كما أنهم عُنوا بترنيمة الماشية، وعرفوا الكتابة وmutex الصناعات. وظهر الفينيقيون في تونس، على الأرجح، منذ بدء الألف الثاني قبل الميلاد، ولم ينسوا مدناً ثابتاً إلا في القرن الثاني عشر، ومن هذه المدن، "أوتيك" الواقعة على الساحل الافريقي، على بعد عشرات الكيلومترات من شلال قرطاج. في خليج تراكمت فيه حاليًا رواسب نهر المجردة. أما مدينة حضرموت، وهي سوس الحالية، فقد تأسست بعد ذلك بزمن قصير. وتم بناء مدينة قداس ولكوس الفينيقيين، في النصف الثاني من الألف الثاني قبـل المسيح، من جهته مضيق جبل طارق.

وأما أن قرطاج كانت قريبة من بعض المدن الثابتة «أوتيك»، ثم حضرموت، فقد أقام الفينيقيون فيها مركزًا تجاريًا، في وقت مبكر جدًا، لأن طريقهم في الملاحة فرضت عليهم إقامة مطات عديدة. ويُحَوِّل لنا ذلك بناء أثري صغير، ديني أو جنائزي، اكتشف حديثاً، وهو مشيد تحت المذبح القرطاجي. ويدلنا على
تاريخ نشوء المدينة بقايا خزفية من صنع قبرصي وفينيقي، يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريباً. فالفينيقيون الذين أسسوا قرطاج هم ساميون من الفرع الكنعانى. وثبتت دراسة لغة الفينيقيين وديانتهم صحة هذا التصنيف العربي أكثر مما تثبتها الأنتروبولوجيا. وعندما قرر قيام قرطاج على بعض الجاعم لماذ بشرية متنوعة. وهي لا تتصل بعديدات العرق السامي الأصيل إلا بصورة استثنائية. فأنا ترجع عادة إلى أجناس خليطة.
وأسس قرطاج صوريون بمساعدة قبرصيين، لكن النصوص القديمة والكتب الفنية تتفق إن في الحكايات التي تسودها أو في أساطة العلم المختلفة والمتنوعة الجغرافية على إظهار تنوع السكان القرطاجيين. وعن هذا التنوع تولد أنواع عرقية اختلفت فيه الاجناس البشرية، لأن الفينيقيين لم يبرزوا عن الاقتران بالنساء الغربات. وهكذا جمعهم حضارتهم السامية ولغتهم السامية وديينهم السامي أكثر مما جمعهم خصائص عرقية مشتركة.

5 - الموقع التاريخي
أسس قرطاج في سنة 814 قبل الميلاد جاعة من الفينيقيين، اقبروا من صور بقيادة «أليسا» أو «ديدون»، أخت «يغاليا» ملك صور. وضمت هذه الجاعة المواطنين الأغنياء الذين تركوا صور تحت وطأة أحداث سياسية أو اقتصادية محلها، ورافقا الملكة نحو مدينة
 واضحة العالم يقطنها صوريون منذ قرون.
وفي ذلك الوقت، كانت مصر في إخطاط كلي، يستعدها ملوك حبشية ولبيبيون، قبل أن يحتلها الأشوريون، وقبل أن تسطر عليها اليونان أثناء النهضة الصحيدية.
وأما الامبراطورية الأشورية، فقد عظم شأنها، وسطت سلطتها على العالم الشرقي حتى سنة 612 تاريخ سقوطها.
وقبل ذلك بثلاثة قرون انتهت حرب طروادة، وأخذت اليونان المنتشرة تنظم نفسها، واستمر ابناؤها صقلية وليبيا، وتنافسوا مع الفينيقين في الميدان التجاري والاستخاري.
ولن يتم تأسيس روما إلا بعد ذلك بخمس وستين سنة.
الفصل الثاني
المصادر

حقّ «شمبوليوون» رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٤، واكتشف بوتًا عام ١٨٤٣، أثناء أعمال التنقيب التي قام بها بلاط الملك الأشورى سرجون، في خرساباد، مما أتاح قراءة النصوص المصرية، واكتشاف بلاط رائع، وتوضيح جزء من تاريخ الإنسانية. وتبارى البحثاء وعلاء الآثار والهواة في نشاطهم، تشجعهم هذه الاكتشافات. ومكّنت أعمال التنقيب في الشرق وفي شِمال أفريقيا من تنمية وسائلنا في البحث والنقد، فازدادت معرفتنا بالشعوب الفينيقية والقرطاجية، التي لم نعرفها من قبل، إلا من خلال روایات المؤلفين اليونان واللاتين.

فالمصادر التي نستطيع من بعد أن نهل منها المعلومات المتعلقة بتاريخ وحضيرة قرطاج، هي نصوص لمؤلفين كلاسيكيين، ونقش فينية وفونية، بالإضافة إلى الآثار التي بشَا التنقيب.

١- النصوص

١- المؤلفون الكلاسيكيون. إن أقدم النصوص هي قصائد
هوميروس. فعندما ألف الإلياذة والأوديسة. كانت تجارة صور منتشرة في كل البحر. وأظهر عبرناء بيرار في سلسلة من المؤلفات، مقدار ما للفينيقيين من فصل على اليونان الناشئة.

وبقرونه لنا تأريخ هيرودتس، وتأريخ ديودورس الصقلي، و"بيلوبيوس"، و"تيت لين"، و"أيبانوس". و"تروغ بومبي"، و"بيوستينوس"، و"كوروبليوس نيوس". و"سيليوس إيطالكوس" و"غيرهم"، معطيات هامة، ولكن يتوبون التحامل في أغلب الأحيان. وبالإضافة إلى ذلك، لم تسع هذه المعارف من منابعها، كما أن نقد المصادر ما زال أمرًا عسيراً.

وعثرنا بفضل "أوزاب"، الذي يستشهد "فيلون الحبي"، على بعض معالم الديانة الفينيقية. وكان "فيلون" قد وقع بين هذه العالم وبين الحقيقة التي أتى بها "سينكونيواتون". إلا أن النصوص التاريخية المحفوظة والموثقة لا توضح الواقع رغم كثرتها، كما توضحه الوثائق القديمة المستخرجة من باطن الأرض.

٢- النصوص الشرقية. - أن الوثائق المكتوبة التي تتناول أقدم مرحلة من التاريخ الفينيقي ما زالت نادرة.

وبعض المخطوطات التي كشف عنها في تل العازنة، في مصر، هي مقتطفات من السجلات الدبلوماسية، تعود إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح. وتبيّن لنا التقسيم السياسي في العالم الشرقي. إنها
رسائل رسمية تبادلها ملكا مصر الفرعون «أمينوفيس الثالث» والفرعون «أمينوفيس الرابع» مع أمراء سوريين وفينيقيين وآسيويين. وترجع إلى هذه المرحلة مخطوطات رأس شمرا. وهي مجموعة من المخطوطات المكتوبة بالحرف المسوري، اكتشفت في مكتبة معبد يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، إبان أعقاب التقيب التي قامت بها بعثة فرنسية بين سنين 1929 و1939. وكان «شيفر» يدير هذه البعثة في منطقة رأس شمرا - أوغاريت، المدينة القديمة الواقعة في أقصى شمال فينيقيا. وتطويرت هذه المخطوطات على أدب الفينيقين الكثيبي والمليلي، وتظهر لنا قرآبهم للعرب الذين عاشوا قبل موسى وأصلهم المشترك معهم. وهي تؤكد في الوقت نفسه صدق أساطير الآباء القدامى التي يسوقها الكتاب المقدس، كما ثبت قدم هذه الأساطير. وهي تساعدنا خاصة في معرفة الديانة القديمة، في الألف الثاني قبل الميلاد، هذه الحقبة التي سيؤسس أثناءها بعض فرق البحارة الشجعان المدن الفينيقية الأولى في إفريقيا.

3- النصوص الفونية - تطلق هذه التسمية على النصوص التي اكتشفت في قرطاج. وكتبت باللغة الفينيقية، وهي أجنبية سامية. وتبقى هذه النصوص رغم كثرتها قليلة التفعيل في أغلبها. ولقد درست ونشرت تباعاً بحسب اكتشافها في «مجموعة المخطوطات السامية»، نفضل جهود «أكاديمية المخطوطات والآداب».
وأكثر من خمسة آلاف من هذه النصوص هي مخطوطات إهدائية، لا تعددى بضعة أسطر، نقشت على الصفحة الرئيسية من النذور. والواقع أن هذه النذور قد عثر عليها في قرطاج، وهي مهداة لأهؤلاء الآلهة في المدينة. وأما العبارة الأموظجية في هذه المخطوطات فهي التالية: "تقديم حنون بن ماجون بن بود ملكارث، للربّ ثانيت ولربّ بعل حموّن، لأنها سمعا دعاءه وباركاه". ولا شكّ ان اسم صاحب التقدمة ينقرّ باستمرار من نذر إلى آخر، وكذلك كل ما يشير أحيانا إلى المصدر الجغرافي والمهنة. وإذا ما نظرنا إلى المنطقة التي تأتي منها مجموعة هذه النصوص، وإلى ميزات الكتابة فيها، أمكننا إرجاعها إلى القرون الأربعة قبل الميلاد.

وإبان حملات التنقيب التي قامت بها سنة 1946 "إدارة الآثار القديمة"، تحت إشراف "ستاس"، عُثر في الطبقات السفلى من مذبح "سليمبو" على نصبين جنائيين، نقشت عليها كتابات بحرف قديم جداً، ويعد تأريخها على ما يبدو إلى القرن السادس قبل المسيح، ولا يزالان يعتبران أكثر النصوص قدماً في العالم الفوني، ويحملان عبارة إهدائية تختلف عن العبارات السابقة، وتشير الطرق في تقديم الذيحة يعتقد أنها طريقة التضحية بالأولد في قرطاج. وهناك مخطوط نشرها "ديون - سومر" عام 1968، تتكلم عن انشاء مبنى معدّ للخدمة العامة يعود إلى القرن الثالث.

21
ومن النصوص التي تُلفت النظر "تعرّفات الذبايا"، وبلغ عددها في الوقت الحاضر خمسة، وهي مخطوطة شبه كاملة، موضوعة في المعاد. سنعمد إلى درسها في الفصل المعقود للديانة الفونية وطقوسها.

وليس المسركات من الناحية النقوشية بذات أهمية، لأنها قليلة التنوع في قرطاج.

ولقد تعرّفنا بعض النصوص الفونية بواسطة الزرجات اليونانية الكثيرة التحزيء لسوء الحظ. ولا بدّ من أن نذكر منها رواية تلك الرحلة على الشواطئ الأفريقية، التي عُرفت "برحلة حنون البحرية". وحُفرت على طاولة برونزية في معبد بعل بقرطاج، ووصلت إليها ترجمتها اليونانية. وبالرغم من غموض بعض الحمل فيها، تعرّفنا هذه الوثيقة توسّع قرطاج الاستعماري وجرأة ملاحّيها الذين كانوا أول من اكتشفوا ساحل أفريقيا الغربي وجزر الإطلسي.

وقدماً لتي مؤلف ماغون القرطاجي في الزراعة شهرة واسعة، ووصلت إليها منه بعض الصفحات التي ذكرها مؤلفون قديمة، أما مخطوطات مكتبات قرطاج فقد تشتبث وأفسدت عندما نهب "سيبيون" المدينة، وأسلم بعضها إلى الملوك النوميديين فحفظوه، ومع ذلك لم نخلص إليها أية مخطوطة منها.
2- أعمال التنقيب
في بداية القرن التاسع عشر، عندما أخذ يزداد اهتمام المؤرخين
وعلياء الآثار بتعريف وحضارة الشعوب القديمة، أثارت قرطاج فضول
العلماء وجشع التجار. واشتهى اسمها كما أصبحت المنطقة التي قامت
فيها، بفضل النصوص القديمة، وبفضل الصراع البطولي الذي
نشب بينها وبين روما، والذي عرف بالحروب الفونية.
وتأسست في باريس 1831 شركة كانت تهدف إلى اكتشاف
قرطاج، وهي لم تنشر النتائج التي تم الوصول إليها، ولم تطلع عليه
المساهمين. هذا إذا توصلت إلى نتائج. وبعد ذلك بقليل، وضع
"فالب" القنصل العام للدائم في تونس، تقريراً قيماً عن المنطقة
وعن الترميم فيها. ولكنه عدل عن القيام تنقيب منظم. وفي الوقت
 نفسه، بحث "ناتان دايفيس" في شبه الجزيرة، وفي قصده العثور
على بعض الآثار الذي يقدمها للمتحف البريطاني.
وبحث "بولي". عضو المعهد الفرنسي. أول من قام بالتنقيب
بطريقة علمية. وهو لم يهدف من ذلك إلى اكتشاف بعض الآثار
المتواصلة إلى إيضاح طبوغرافيا وتاريخ المدينة الفونية. وأدار في
قرطاج حملات تنقيب. إحداهما في ربيع سنة 1859، والآخر
في الخريف من السنة نفسها.
وتقسّي "بولي" أرض شبه الجزيرة مرات كثيرة، فحصل على
معلومات دقيقة. لكنه اتفاق لخياله. وهو المتضمن بالأدب القديم الحاضر بالمدينة التي ينتقد فيها. فراح يفسر النتائج الهزيلة التي توصل إليها. وجعل منها منطلقة لأعمال ترميم واسعة. وتحمل دراسته للمنطقة قيمة كبيرة لعالم الآثار. رغم أنها لم تبلغ الدقة المشرودة.

وقد خصص حملة التنقيب في الربع لاكتشاف تلة «بيرسا» التي اعتبرت دائمًا يُعتقد أكروربول قرطاج. وجد على طول يتجاوز المئة متر سوًا ذا جدار ضخم، وتعَرف آثارًا رومانية كثيرة.

وانصرف في الخريف إلى مرفأ قرطاج. وهو يَعمل يُبقى أول من حاول أن يدرس عن قرب التجهيزات المرفأية التي ما زالت قائمة.

ونحن نعلم مقدر ما تتفق مع ما وصفها به «أبان».

وأُخِر حملته باكتشاف مدافن «غامرت»، في الطرف الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة. ويكاد هذا المدعن لا يحتوي إلا على قبور يهودية من العهد الروماني.

1 - الآثار الفونية. - في سنة 1874، أُولِك «أكاديمية المخطوطة والآداب» إلى «دي سانت ماري»، الملحق الدبلوماسي بالقنصلية العامة لفرنسا في تونس، مهمة تتعلق بالمخطوطة. يقصد منها البحث عن آثار تُحمل كتابة بالخط الفوني. وإغضاء «مجموعة المخطوطة السامية» (المجموعة الرسمية للنصوص السامية) التي بُشر نشرها. وُكِلَت هذه المهمة بالنجاح.
وامتدّت أعمال التنقيب من آب حتي كانون الأول من سنة 1874. وشملت المنطقة الواقعة على منتصف الطريق بين «بيرسا» والبحر، بالقرب من المكان الذي تم فيه الخطوط الحديدية من تونس إلى المرسى. وأثناء هذه الأعمال، عُثر على ما يقارب ألفين ومئتي لوح نقوشي من الحقبة الفينيقية، تحمل غالبًاً كثيرة، وكتابة إهدائية للإلهة ثانيت ولالله بعل حموًّون. وأرسلت هذه الآثار إلى فرنسا، لكنها غرقت مع المركب الذي كان ينقلها عند مدخل مرفأ طولون، وأخرج من الماء القسم الأكبر منها، وأعيد نقوشها جميعًاً، بفضل النسخ التي نقلها المنقّب قبل انطلاقة المركب.

ومن نتائج هذا الاكتشاف، تأليف كتاب مهمّة في قرطاج.

وعدّة كراسيس من مجموعة المخطوطات السامية.

ورجع اكتشافات الأب دوراني الأول إلى سنة 1878، كما أنها استمرت بعد ذلك طيلة إقامة هذا الباحث الذي لا يتعب في فرطاج. أي ما يقرب نصف قرن. والمجموعات الفينيقية الواقعة في متحف قرطاج هي وليدة أعماله الطويلة. فقد نُقِب في مداخن قرطاج على التوالي: في قبر بيرسا في سنة 1880، وفي دوباماس من سنة 1892 إلى 1896، وفي برج جديد من سنة 1898 إلى 1906، وفي غيرها.

وفي سنة 1894، أقبل رينانج وبارسون إلى قرطاج. يحتّها
على ذلك «تيسو»، العالم في جغرافية إفريقية القديمة. فحوّلا المنطقة التي اشتعل فيها «سانت ماري» سابقاً إلى ميدان تنقيب، واستخرجوا منها 580 آثار، 330 منها نقشت عليها كتابات.

وفي سنة 1899 شرع «بول غوك»، مدير «الآثار التونسية»، في التنقيب، واستغرق عمله أربع سنوات، تمكّن ان يكشف خلاها عن المدافن القوية، وأن يجمع مادة كتابه «المدافن القوية» الذي نشره «أنيزاني» بعد موت «غوك».

وتتعدّ مدافن قرطاج بشكل قوس من تلة «بريسا» حتى الشاطئ، عند سفح تلة «سانت مونيك ».

وبين سنتين 1906 و1909 عاد "مرلين" و"دراييه" إلى التنقيب في المدافن، وانصرفا عن قبر "دراشي" الأكبر فدما لأن غوكلر قد اكتشفها سابقاً، فقصدوا إلى قمة المضبة، حيث المكان الذي يقال له "أرض الخراب"، وبنشأ عن مجموعة من الفبور. يرجع عهدها إلى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، وتوسط من الناحية الزمنية مدافن "دراشي" ومدافن "سانت مونيك" التي يعود تاريخها إلى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

وفي سنة 1908 و1911، عمد "مرلين" الذي خلف "غوكلر" في "إدارة الآثار التونسية" إلى التنقيب في جزيرة صغيرة تقع وسط المرفأ الدائري الشكل. في غضون ذلك على صف من قطع الحجارة الفنية الكبيرة والمربعة الزوايا. ويبدو وصف هذهقطع غير متفق مع الشكل الدائري الحالي للجزيرة، التي تحيط بها جدار مبني خجارة فونية. أعيد استعمالها على ما يظهر في الحقبة الرومانية.

ويستؤلف أعلام التنقيب هذا أن الجزيرة كانت مأهولة في الحقبة الفونية. ولكن ما من شيء يحملنا على الاعتقاد بأنها اتخذت في ذلك الوقت شكلًا دائريًا. أو خفقت فوقها راية أميرال. واكتشف الدكتور "كرتون"، في سنة 1912، معبدا فونياً في قرطاج نفسها، في موقع محطة "سلمو" الحالية.
وعتر في هذا المعبد المتقاطع والمتهدِم بكامله تقريباً، على حمسة
تماثيل. وعلى فطع من المرمر المستعمل للزخرفة.

ويرجع إلى عالم الآثار هذا الفضل في اكتشاف نبع محبس الميام
في برج جديد. ويعود عهد هذا النبع إلى المرحلة الفينيقية رغم ما لقي
من تحسنان عبر الحقب المختلفة. كما عُرف موضعه "نبع الألف
قارورة". لكنّها ما نقي فيها من آخر قديمة (حوالي الألفين).

وفي سنة 1922، اكتشف "إيكار" و "جيال" عدداً كبيراً من
الألواح النقوشية الفينيقية. وهي نذور شبيهة بتلك التي وُجدت في
أمكنة مختلفة من قرطاج. ولِهذه الألواح حسنات جمعة. بسبب
الثور عليها في موضعها الأصلي. أي في المكان نفسه الذي أقامها
فيه قبل الميلاد بضعة قرون عبّاد بعل وتائت.

ويقع هذا المكان المقدّس الذي عُرف بمِجْبُح قرطاج على بعد
خمسين متراً عريّ المزدَّر الاستطيل الشكل (انظر خارطة قرطاج في
صفحة 52 - 53).

وسرعان ما لفت "بونسو"، مدير الآثار الفينيقية آنذاك، إلى
أهمية هذا الاكتشاف.

وفي ذلك الوقت، بوشر التنقيب بطريقة منظمة. تحت إدارة
"لانتيه"، مفتش الآثار. ومساعدته.
وازداد عدد الآثار التي كشف عنها، وعُظمت أهميتها. ومما حدا
البعثة الإلكترونية التي يديرها "كلسي"، البروفسور في "جامعة
ميشيغان"، على أن تسرع من الولايات المتحدة. وعُدّفت البحث،
بعدما نُبِّئ أن حدود المذبح تـُقدّم بكثير حدود الأرض التي تقع
فيا "إيكر" و"جيللي". وكان الدكتور "كرتون" قد تمّلك قطعة
أرض مجاورة للمذبح. ولكن الموت لم يُتج له أن يكشف عمـا فيها.
وفي سنة 1936، تحقّق الأب "لابير" بتنقيب قطعة الأرض
التي أعطت إليها السيدة "كرتون"، وأُبلِّغ أن انتشار الآثار فيها
يساهم انتشارها في الأمكنة التي تَقَبَّلت سابقاً. كما أُحِب أن هذا
المذبح يمتد إلى مسافات بعيدة. وتنتمي الأب "لابير" إلى رهبانية
الاباء البيض، وهو مدير "متحف لافيجري". وخلف للأب
"دولان" الذي لم يقطع نشاطه في مضايا الآثار في قرطاج. طوال
عشرين عاماً.
وتوقف التنقيب قبل الحرب بقليل. لكنه استأنف في سنة
1945 في الأراضي الواقعة إلى الغرب من الأراضي السابقة. يُدتْ
عليه "بيكار" مدير الآثار، ويديه "ستاس" الذي اهتمّ باكتشاف
المذبح اكتشافاً نهائياً. فراح ينفّذ الأرض في طبقات متتالية،
بعد أن جاؤ إلى طريقة ووسائل تستعمل لأول مره في قرطاج.
ويساعد نشر أخبار هذا التنقيب في المذبح على استحلاص قدر
من الحفائر الخاصة بالديانة والحضارة الفينيقية. وباشر الأب «بوادوبار» أبحاثه، فسماه إلى دراسة التجهيزات المرفقيَّة، والتجارب موضعها. وكان الأب «بوادوبار» فد تخصص منذ بضع سنوات في دراسة المرافق الفينيقية، وخاصة مرافق صور وصيدون. واستعان في قراح بأحدث الطرق في البحث كالتخطيط من الجو والبحر. والسير تحت مياه البحر.

وصار التنقيب باندفاع متجدد بعد أن أسست حكومة تونس المعهد الوطني لعلم الآثار والفنون الذي أصبحت فيه تعمل في قرطاج باستمرار. إلى جانب غرفة مركز الآثار الأثرية والتراثية في تونس، وغرفة معهد الدراسات حول الشرق الأدنى في جامعة روما. ومنذ سنة 1956، ومع قيام اعمال محمد حسن فنير، ومريح إينفر، وعلاء آثار تونسيين كثيرون. أخذ علم الآثار الفينيقية يتقدم. وأخذت تزداد قيمة بجموعات متحف «باردو» الشهيرة.

٢- الآثار الرومانية - رافق الكشف عن الآثار الفينيقية تنفيذ عن الآثار الرومانية في قرطاج. وحفظت الآثار الرومانية الرئيسية في قرطاج من الضياع بفضل قياساتها. ورشمت مصاحف الآثار في تونس ترميمها ورفع أنقاضها. ولم تولِى أهميّة كبيرة للكشف عنها.
وشملت حركة التنقيب والترميم والدرس، المسرح وقاعة الغناء والسينك والمدرج وبعض المزارع وكثيراً من أحياء المدينة الرومانية. وأشهر من قام بهذه الأعمال ‏ًأودوينت، و‌سومانيه’’ الذي اشتعل في مسح الأرض، و‌مرلين، و‌غوكرل’’.

وفي سنة 1945، تابعت ‏‘‘إدارة الآثار’’ رفع أنقاض ‏‘‘حمامات أنطونين’’. وتمتع خرائب هذا الأثر العظيم على بضع مئات من الأمطار، على طول الشاطئ، من قرطاج إلى برج جديد. ولقد أصبحت مقبلاً دائماً للبنائين المتوسطيين لأكثر من ألف سنة، غير أننا ما زلنا نرى فيها بقايا قوية.

ولنرغث من الأنقاض الغرف المدفونة تحت ركام القباب المتهدمة من الضبّان العليا. ونجح ‏‘‘فوي’’ في دعمها وفي رفعها في أمكنتها. وتهيمن العظيمة على هذه الغرف، فهي ما زالت الدليل الذي يوفرنا غنى قرطاج الثانية، وازدهارها.

وفي سنة 1948، أخذ الأب ‏‘‘فران’’ ينتخِب في أنحاء كثيرة من قرطاج، فاكتشف في سيدي بوسعيد مدافناً، يرجع عهده إلى السنوات الأخيرة من قرطاج الفونية. فأثبت بذلك توسّع المدينة المستمر نحو الشرق. وعمد من ناحية أخرى إلى البحث عن بناء المستدير اللقب القائم تحت الأرض قرب ‏‘‘بايليكي’’، ‏‘‘داموس الكريتا’’. لبّييغ أوجه استعماله، وليحذّر تاريخه. وإلى جانب 31
ذلك كان نشاط الأب "فرؤ" في "متحف لافيجر" لا ينقطع.
وفي سنة 1949، اكتشف الح wszال "ديفال" بقايا خصائص قرطاج الفرنسية.
وأما زال في وسع الكثيرين ان يسموا، عند البحث في الأرض التونسية، في تقدّم علم الآثار الفرنسية. وفي إنشاء مجموعات متحف "داردو الشهيرة. ومن أجل ذلك، ما برّج "قسم علم الآثار الفرنسية في مركز الآثار الأثرية والتاريخية في تونس" يعمل باستمرار.
فصل الثالث

أصول المدينة وتأسيسها

أسس قرطاج فينيقيون أتوا من صور. فظهر تأثيرهم العميق في ديانة المدينة ولغتها وحضارتها. ولذا تبقى بعض الأفكار الأساسية عن فينيقية وسكانها. مقدمة ضرورية لفهم الحضارة الفينيقية.

1- فينيقية. - في القديم. كان يطلق هذا الاسم على المنطقة الجغرافية التي تمتتد تقريباً على ساحل سورية الحالية (أنظر الخرائط في الصفحة 34). وكانت فينيقية تعد عشرين مدينة وضياعاً كثيرة. أما مديها الرئيسية، فهي من الجنوب الى الشمال صور وصيدون وبريت (حالياً بيروت) وجبل (بيبلوس) وطرابلس وأرواد. وفي أقصى الشمال رأس شمرا وأوغريت المواجهة لجزيرة قبرص.

وكان هذا لنجد الفينيقية تعتبر مستقلة بعضها عن بعض. إلا أنها بقيت في الواقع تجمعها الحضارة ذاتها، فأصلها واحد ولغتها واحدة ودياناتها واحدة. ويجدر الإشارة إلى أن مصيرها المشترك كان يرتبط بالتيارات التاريخية الكبرى. وقد تمكن هذه المدينة باعتدالها ان تفلت من هذه التيارات أحياناً. وأن تقاومها أحياناً نادرة.

33 - تاريخ قرطاج
وتنكوّن فينيقية من مجموعة من المدن، يحدّها أفقها من الشرق جبال لبنان، كما تحوّل دون توسّعها. وفي القديم، أصبح سكانها أيام الملاحيص، بفضل الموارد البحرية التي تدفقت إليها عبر مراقبتها.

2 الفينيقيون. - يبدو أن موطن الفينيقيين الأول كان في جوار البحر الأحمر، هذا ما أورده هيرودتيس، وأكّده من زمن قريب مخطوطات رأس شمرا. فهذه المخطوطات ليست سوى أساطير وقصائد دينية وملحمية. كتبت في القرن الرابع عشر قبل المسيح.

وتجري حوادثها في المنطقة الشماليّة الغربيّة من شبه الجزيرة العربيّة. ومنذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، فرضت تجارة القوافل على الفينيقيين أن يختلّوا لبنان ومرفأة صور وصيدون الحامين عند سفوحه. وأنشأوا أسطولاً برياً. وما على نسق أسطول الإيلين. وتمنّوا بذلك أن يوسّعوا علاقاتهم التجارية. فلقد ظهر التأثير المصري في جبل حوالي الألف الثالث قبل المسيح. ولم يقطع أهلها عن التبادل التجاري مع المصريين.

ولا يستبعد هيرودتيس أن يقع تأسيس صور حوالي عام 275 قبل الميلاد. وسدّ تأثير المصريين في فينيقية في نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني. لكن معظم المدن الفينيقية ظلّت تقاوم باستمرار للحفاظ على استقلالها.

وحوالي سنة 1200 قبل الميلاد، اجتاحت غزوة من الشعوب
الآنية من شمال سورية فينيقية وفلسطين. ولم توقف إلا عند حدود مصر. فعانت معظم المدن الفينيقية، ومنها صور وصيدون، الكثير من هذه الغزوة. وأما مصر التي شغلت في الدفاع عن نفسها، فلقد تخلّت عن الوصاية التي كانت تفرضها على المدن الفينيقية. فعممت صور باردهار لا مثيل له بعد أن نهضت من خرابها. فكانت هذه المرحلة التاريخية أعظم مرحلة عرفها التوسع الفينيقي.

ومنذ مطلع الألف الثاني، كما نعلم، أخذ الفينيقيون وخاصة الصوريون يستقرّون في نقاط كثيرة من الساحل المتوسطي ليضمنوا لتجارتهم منافذ جديدة. وبفضل دأبهم وذکارهم وحسن معرفتهم للطرق البحرية، وربما لاستقامتهم في التعامل التجاري، تمكّنوا من أن يصمدوا في وجه المخاطر، وأن يوفروا تجارتهم الأسواق البعيدة التي حُسِّدتها عليها قُلم يبلغها أحد سواهم. ووسّعوا حدود العالم المعروف، وتجاوزوا الشواطئ المتوسطية، ليستقرّوا على تخوم العالم الغربي. في قادس ولكسوس، من ناحيتهم مضيق جبل طارق. وأسسوا في غضون حرب طروادة أوتيك في تونس، وأقاموا بعد ذلك بقليل في حضرموت (سوس الحالية). واحتفظوا لأنفسهم بالساحل الأفريقي المواجه للشرق. وفي ذلك الوقت، استكملت صور رقابتها الاقتصادية على ساحل صقلية الجنوبي وعلى سردينية وجزر الباليار ومالطة ونتيلارية.
وحكم ملوك صوريون قبرص خلال قرون طويلة، وأقام الفينيقيون مراكز تجارية في كريت وفي دلتا النيل. وأنشأوا مدينة قرطاج على السواحل الأفريقيَّة التي خضعت لرقابتهم دون سواهم، فتمكنت قرطاج من أن تنوب عن صور في السيادة على حوض المتوسط الغربي. وتنازلت صور شيئا فشيئا عن قوَّتها لقرطاج، بعد أن اشتدت عليها وطأة الاجتياح الأشوري.

وخضعت المستعمرات الصورية طوعا أو كرها لسيطرة قرطاج. وعندما استولى الأسكندر على صور سنة 333 ودمَّرها بعد أن قاوم أهلها بضراوة، فإنها المدينة وحدها هلكت، واستمرت امبراطوريتها بعدها بقرنيين، وارتبَّت مصيرها بقرطاج.

3- تأسيس قرطاج - إن بعض الحقائق التاريخية والأساطير التي وصلتنا منها عن تأسيس هذه المدينة لا يسوق لنا سوى القليل من المعلومات الدقيقة. ولكن نعلم أن أليسان، مؤسسة قرطاج والمعروفة بديدون، اللقب الشعري الذي أطلقه فرجل عليها، هي أخت بيجاليون، ملك صور.

وإن كان يجهل كل شيء عمدا يتعلق بسلالة أليسان وبيجاليون فهل يتزعمان من أحيام ملك صور الذي عاصر سليمان وكان صديقه؟
هذا أمر محتمل. أم هل يتحدثان من الملك إيتوبعل؟ يكاد يكون ذلك مؤكداً. فلقد عرفنا ذريّة هذا الملك بواسطة روايات تاريخية وتراثية وشعرية.

فعندما استوى إيتوبعل على عرش صور في سنة 933 قبل المسيح، كانت المدينة قد بلغت أوج قوتها وشهرتها. بِيها مملكة إسرائيل تمر في فترة انحطاط، إذ استولى ملوك اليهودية على قسم من مدن الحبوب، وبنى آخرون ملك إسرائيل يحكم في الشمال. وآخرون هو الذي زُوجه إيتوبعل، بابته (إيزابل)، كما كانت «آتالية»، ابنة آخرون، وحَفيدة إيتوبعل، زوجة ملك اليهودية. وبعد بضع سنوات خلف "متان" جده إيتوبعل على رأس مملكة صور، فواجه كثيراً من المشكلات السياسية والدينية التي احتملت عند موته. وترك ولدين أليسا وباغاليون. وتقع أسطورة تأسيس قرطاج في هذه الفترة التاريخية.

ولا يبدو أن تكون أليسا قد جلست على العرش، وتزوجت أشرياس كبير كهنة ملكارت. وبعد أن أرسل باغاليون أحواله فقتل صهره، عزمت أليسا على الهرب، برفقة جاهزة كبيرة من الأشراف، الذين أخذوا بصحبهم عددًا كبيرًا من عامة الشعب الساكنين في جوارهم. كالبحارة والأجراء والأبيد وغيرهم. وأجروا مراكبهم، فوصلوا إلى فلسطين التي كانت السيطرة الفينيقية تشملها.
بكلامها. ولا عجب إذا لاقى الفاروين استقبالًا حسناً، لأن كبير كهنة الجزيرة كان يشترط الملكة أليسا معتقداتها وآمالها. وقرر أن يرافقها مع جاعتها إلى منفها، فأكدت له الملكة، اعترافًا بضلاله، أن ذريته ستستمتع في المدينة الجديدة بالوظائف والامتيازات الكهنوتية. وأفاد الفاروين من التوقف في قبرص، فضمنوا لدينه السلامة من الكهنة وعادًا كبيرًا من الزوجات. فبينما كانت جاعات من الفتيات تغنين على شاطئ الجزيرة حسب تقاليد ديني، احتملت لتسكن قرطاج.

وبعد إبحار طويل، وصلت أليسا مع أتباعها إلى الساحل الأفريقي، ونزلت في بقعة لم يقع الاختيار عليها صدفة. وكان في هذه البقعة موقع فنيري لا يعرف اسمه الأول، فسميت أليسا هذا المكان "قرت حدشت"، أي المدينة الجديدة. وما كادت قدمها تطأ الشاطئ حتى اتصلت بأهالي البلاد الأصليين واستطاعت أن تحصل من رؤسهم على أن يمنحوا من الأرض مقدار ما يكفيه جلد ثور. فأمرت الملكة بتقسيم الجلد إلى أشرطة دقيقة، وألحبت بواسطة بقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها. وانتظم التجاري التجاري مع أهالي البلاد الأصليين، وأقبل سكان أوتوك، المستعمرة الفينيقية الواقعة على بعد عدة كيلومترات من شلال قرطاج، ليزوروا مواطنهم، بعد أن بلغتهم شهرة أليسا، وعرفوا نفوذ أصحابها.
وتمت المدينة. وأسهم تأثير الملكة في غناها. فتقدمت ملك من ملوك البلد الأصليين. اسمه "هيارباس" وطلب أن يتزوجها. ولم تستطع آليسا أن ترفض طلبه. لأن ذلك الملك كان قويًا وقادراً على أن يهدد أمن مدينة قرطاج التي ما برحته عاجزة عن محابهة الحرب.

وطلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت. وتقول الأسطورة إن الملكة نصبت بعد ثلاثة أشهر من ذلك. محرقة كبيرة عند أبواب المدينة. وقرر أن تقدم ذيفة لروح زوجها الأول. وبعد أن أهلكت ضحاها كثيرًا. ارتقت بدورها في الخرقة. فالتقت وطلت تكرّم بعد ذلك. في مكان موتها، مثل إلته. حتى سقوط قرطاج.

تلك هي أسطورة تأسيس قرطاج التي رواها "تيه" المؤرخ الصفلي. و"تروغ يوميه".

ولا شك إن هذه الرواية، رغم كونها خرافية، تحتوي على أسس تاريخية ثابتة.

فاسم بيجاليون الذي شاع استعماله في قرطاج. وجد مكتوبًا في النقش، والنصوص النبوية التي تربط قرطاج ب بصورة، أكّدت قصّة تلك البعثات التي كانت تطلق كل سنة من قرطاج، لتحمل الجزيرة إلى الوطن الأم. بمناسبة عيد ملكارت، كما أشير في الأسطورة، من خلال الكلام على منصب أرشباس الكهنوت. إلى عبادة ملكارت.
وأهميتها في قرطاج، وما روي حول كاهن قبرص الأكبر. ولحول خطف العذاري، يدل على عادة الوراثة في الكهنوت. وعلى أهمية العنصر القبرصي في المدينة الفونية. ولا يرغب عن باننا أن قرطاج ظلّت تدفع الجزية كل سنة للملوك البلاد الأصليين طيلة قرون أربعة.

وأشار إلى عبادة أليسا في الوقت نفسه الذي سقطت فيه قرطاج. أي بعد سبعة قرون من موت الملكة التي ضحيت بنفسها في معبد قريب من المرفأ. وكشف التنقيب مؤخراً غرب المرفأ المستطيل الشكل. عن مكان تقديم الذبائح في قرطاج. واستخدم هذا المذبح منذ تأسيس المدينة الفونية. وأقيم على معبد صغير.

يرجع عهده إلى زمن المركز التجاري الأول الذي أنشأه الفينيقيون. قبل تأسيس المدينة الفونية الكبيرة بأربعة قرون على الأقل.

1 - الطروحات

لا شك أنه كان في قرطاج. قبل أن تؤسس أليسا "المدينة الجديدة". مركز تجاري فينيقي. ولكن تحديد موقع المدينة الأساسي ما زال يثير الجدل حتى الآن. فلقد رأى بعض المؤرخين وعلاء الآثار أن أول موقع استقر فيه الفينيقيون كان قريباً من شاطئ برج جديد الضيّق. ويعتقد آخرون بأن علينا ان نبحث عن موقع الفينيقيين الأول بالقرب من مرفأي سلميو. فالاكتشافات الأثرية أثبتت صحة هذا الرأي الأخير. والحقيقة إن أقدم طبقات الأرض في مذبح
سلمبو يرجع عهدها إلى الأيام الأولى من تاريخ قرطاج. وبالإضافة إلى ذلك، اكتشف هستاس، في ربيع سنة 1947، أثراً صغيراً من الحجم يحتوي على بقايا من الخزف الفينيقي القديم. يعود تاريخها إلى أواخر العصر البرونزي، وهذا يؤكد صحة الرواية الثانية. فقرطاج قامت أول ما قامت في غرب المرفأ المستطيل الشكل. كما انبسط في المكان نفسه المركز التجاري الذي سبق وجود المدينة (انظر الخارطة في صفحة 52 - 53).

وبعضاً أن نفترض أن سوراً بدائياً كان يحيط بقرطاج المدينة، وبمذيح سلمبو، وبالقلعة الرابضة على تلة سان لويز.

وأما المدافن التي اكتشفها عند أبواب قرطاج فهي تحدّ المدينة من الشمال والشرق. ويمتدّ خطّ من السور في هذه المرحلة من التاريخ من البحر جنوباً إلى تلة جونون شملاً، ويمرّ من الغرب بمذيح سلمبو في عهد دومياس-درماس-شروقاً. ولكن لا يستبعد أن يكون القرطاجيون قد لاحظوا منذ القرن الخامس قبل المسيح. وهم في أوج قوتهم، ضيق السور القديم، فعمدوا إلى إنشاء تحصين أعرض، يكاد يحيط بشبه الجزيرة بكاملها، وينبض فيها سلسلة من الجدران يبلغ طولها 42 كيلومتراً. (ولا يخفى علينا أن طول محيط مدينة باريس يبلغ أيضاً 42 كيلومتراً).

وامتدّ القسم الأكبر من هذا التحصين على طول شاطئ البحر.
ولم يكن من هذه الجهة سوى سور بسيط مدعوم في بعض أجزائه، بينها بني من ثلاثة أسوار في القسم الذي يفصل قرطاج عن القارة الأفريقية، ويصل بحيرة تونس «سبكرا» التي بقيت إلى ذلك الوقت مفتوحة على البحر.

وتكون السور الأول المطل على البر من الردم الذي يشبه صفا من الدعام. وكانت هذه الدعام تصد جدارا صغيرا يقوم الجند في أعلاه بالمناورات. وأما السور بالبحر المعني، فيبلغ علوه 17 مترا، وكثافته عشرة أمتار. وهو مبني بالحجر المكسوب. وسلح بأبراج بارزة مؤلفة من أربع طبقات. ويفصل بين البرج والآخر مسافة 59 مترا. وينبسط بأعلى هذا السور طريق مجزم يتجدار وسياطي. تتخلله فتحات ترمى منها السهام، مما يجعل هذا السور صعب المنازل. وأعد الجزء الداخلي من التحصين الواسع بطريقة خاصة، ليأتي إليه الفيلة والخيول، وليحتوي النك ومخازن الإدارة التي ترعى حاجات الجيش. وبدأ للقرطاجيين، أسياد البحر، ان خاطر الغزوات البحرية ليست بذات أهمية، فلم يولوا السور من جهة البحر العناية التي أولوها للتحصين البري. ورغم ذلك، ما زال يبتعد حالياً على طول الشاطئ، بين سلمبو وبرج جديد. جدار مبني من الحجارة الضخمة. والقسم السفلي من هذا الجدار روماني. يتوافق تماماً مع طرق التخطيط التي بناها الرومان عندما أعادوا بناء المدينة سنة 44 قبل الميلاد، وأما هذه الحجارة الضخمة التي رُصِفت في البحر.
رصفاً منتظمًا، فهي تُتصل بإحكام بموقع استراتيجي رحب. يُسمع بالإضلاع. لا يختلف انتظام الحجارة فيه عمّا هو في الجدار البحري. ويبلغ طول هذا الموقع الاستراتيجي الضخم خمسين متراً، وعرضه خمسة وثلاثين متراً. وهو مبنيًّا بالحجارة الكبيرة ويظهر في البحر عند أقدام برج جديد. ولا شك أنّه فوني. فالمدينة الرومانية لم تختصّ إلا في زمن متأخر، في أيام الإمبراطورية البيزنطية، وأتى تخصصها على عجل. لذلك لا يمكننا ان ننسب إليها هذا البناء الجبار. فهل كان قاعدة حاجز بحري أم هل كان قلعة تلتتصق بالسور البحري وتحصن يمتدّ من الغرب؟ الحقيقة أن السؤال يبقى مطروحاً.

ومنذ بضع سنوات، كُشف عن جدار يبلغ طوله بضعة عشر متراً، وكثافته ثلاثة أو أربعة أمتار، على بعد أربعة كيلومترات من خليج كرم وعلى أطراف بحيرة تونس. ولقد بني هذا الجدار بالحجارة الكبيرة واستند إلى أساس بلغت كثافته ثلاثة أو أربعة أمتار. وهو ليس على ما يبدو سوى بقايا سور بحري.

2 - القلعة

كان يطلق عليها اسم «بيرسا». وهي موضع محصن وحديقة أشدها الحياة. يطلّ على المرفأين وعلى أول مركز تجاري أنشأه الفينيقيون. وتُرْبَ هذا القلعة على تلة تُدعى سان لوس.
ويحيط بها سور، وربما سوران، أحدهما يحيط بسفح التلة والآخر. يعبد أشمون الذي ينصب في الدروة. ويصعد الناس إلى القلعة بعد أن يقطعوا ستين درجة كبيرة. وقد بقيت لآخر المدافعين عن قرطاج الملاذ الأخير.

وأما بقايا الأسوار الضخمة التي ما زالت في سفح التلة الجنوبية الغربي فقد اعتبرت مدة طويلة بأنها أعلى أسوار شبه الدفاع الفوضي ولكن لا صحة لشيء من ذلك فهذه البقايا تغمر في الواقع أبنية فونية يرجع عهدها حسب قطع النقود التي وجدت فيها إلى القرن الثالث قبل المسيح، ولا علاقة لتلك البقايا بهذه الأبنية، فتوجه الأسوار الفونية يمتد باختواء، وطريقة بنائها مختلفة تماماً، فن المحتمل أن يكون قد بناها إمبراطور بيزنطي يودوس بعد ذلك بعدة قرون.

3 - المرفان

يورد المؤلف أبيان وصفاً دقيقاً عن مرفأ قرطاج: المرفأ التجاري ذي الشكل المستطيل والمرفأ العسكري الدائر الشكل. وليس هذا المرفان سوى ملجأين اصطناعيين بنيا داخل سور المدينة. وربما سهل الدخول إلى المرفأ التجاري لأنه كان يوفر الحماية للمراكب العابرة، فادخر فيه التبادل التجاري، وأحاط به من جهة البحر صفق من الصخور التي رصفت خليج الشاطئ. أما مدخله فيقع مباشرة غرب رأس كرام، وجميه حاجز مخصّص ما.
زاالت قاعدته القوية قائمة إلى اليوم (انظر الخارطة في صفحة 54-3)
وتتخذ هذه القاعدة شكل مستطيل واسع وتتعرقلها من جهتها البحرية
أقية صغيرة معدة لاستقبال الماء فتحت من ضغطه عند هياج الموج.
وأما المرفأ العسكري، الذي ألحقت به مصانع السفن فيقه من
أنظار الفضوليين جدار محصن وسور المدينة. ويشتري بلاط الأميرال
على هذا المرفأ ومنه يراقب ليبقى أسطول المدينة وعدته العسكرية بمائى
عن فضول الغربياء. ولتحفظ أسرار القطاقيين وطرقهم في بناء
السفن من الانتشار. وتفتق اختيار مواضع المراقي في قرطاج وكذلك
في أوتيك مع هذه التدابير الأمينة.

ومنذ بضع سنوات، أثار تجديد موقع مرفاي قرطاج نقاشاً
طويلاً. فاعتقد بعضهم أن أول مرفاً في قرطاج كان يتبع للمركز
التجاري القديم في برج جديد، ويعيق في الخليج الصغير الجائز على
سفح النلة. ومنذ اكتشاف المعبد الفينيقى الذي يرجع عهده إلى
أواخر العصر البرونزي، في مذبح سلمبو بات من الوضوح ان موضوع
المراقيين القطاقيين لا يبعد عن هذا المعبد. ويتأكد لنا ذلك إذا ما
انتفتنا إلى البحيرتين الاصطناعيتين اللتين ما زالتا في الشلال الشرقي من
خليج كرام. وتبدو إحدى هائلين البحيرتين مستطيلة الشكل والأخرى
دائرية، ويمكن اعتبارهما كعناصر بائنين من المرفاين الفينيقين.
وأثبتت الدراسات التي قام بها الأب بوادوار في منشآت
الفينيقيين المرفئة، وخاصة في صور وصيدون، ان هؤلاء اعتادوا أن يحفروا داخل البرّ مرفاً اصطناعياً دائرياً عادةً. يتصل بمرفأ أمامي مستطيل، مبني على الشاطئ. ومنذ وقت قريب، دلّت الاكتشافات في صيدون على ان الفينيقيين أقاموا في عرض البحر صخورًا أعدّت لتتكسر عليها الأمواج، كما يُثبت هذه الاكتشافات ان الصوريين والصيدونيين برعوا في بناء المرافئ بمقدار ما برعوا في الملاحه.

وامتدّت على بحيرة تونس الملاجئ والارصفة والمراسي. ولم يترسب قديماً في أعقابها الأوحال الباقيا فيها اليوم.

وغاب عن بال بعض المؤرخين ان هذه البحيرات انا هي نفسها المرافئ القوية القديمة. ويعد سبب هذا الغفلة إلى تقليص أبعاد البحيرات التي تغيير شكلها وحجمها تغييراً تامًا. وتُجدر الإشارة إلى أن الحوض الداخلي الذي اكتشف في موتيا في صقلية وحوض المهدية في تونس هما أصغر حجماً.

وتحيط بالمرفأين الارصفة والأكواخ والأروقة الواسعة. وحتى الآن كشف التنقيب عن عدد كبير من قطع الأعمدة والاقاريز المخصصة والمدهونة بالأحمر والأخضر، بينما لم يُعثر على أي أثر في مكانه الأصلي.

وتتباطئ قرب المرفأ الساحة الرئيسية أو الفوروم وتحيط بها الأروقة.

٤٧
وتمركز فيها الحياة التجارية والإدارية في المدينة. ويرتفع غرب الساحة معبد بعل حموّن المجاور لمذبح قرطاج.
وأما معبد ثانٍ فربما كان في منطقة شماليّة بين البحر وقلعة بيرس.
وتتفرع عن الساحة الرئيسية شوارع كثيرة تؤدي إلى موضع مرتفع يقوم عليه معبد أشمون. وتحيط بهذه الشوارع بيوت تتألف من خمس أوست طبقات، وتتلاقى بعضها بعض. وعُثر في جزيرة يقال لها جزيرة الإمارة على لوحة ذهبية تُمثل بيتاً من أربع طبقات. ونكد لا تملك سوى هذه الوحيدة عن مساكن قرطاج. ويبدو أن قصور الأسر الغنيّة تشمّغ غالباً في الشمالي والشرق في منطقة «مغارا» حيث تبسط البساتين الواسعة وزراعة الخضرا.
وتوقع المدافن في المناطق الشماليّة والشرقيّة من المدينة، وتمتّد من تلة «جونون» حتى برج جديد.
ولم يُعثر بعد على أقدم القبور، لكنّا نعلم من خلال ما كشف من القبور الكثيرة و المتراصة أن القرطاجيين استخدموا منذ القرن السابع قبل المسيح المدافن الواسعة القائمة عند أبواب المدينة.
وكانت قرطاج تزود بالماء العذب من الأبار والخزانات وبقيت الينابيع في شبه الجزيرة نادرة جداً. وكشف عن عدد كبير من الخزانات التي يرجع عهدها إلى الحقبة الفينيقية. وفي ذلك الوقت ،

48
جعل لكل مسكن خاص خزَان تجمع فيه مياه الأمطار والمجاري. واستعملت بعض الخزانات لتلتقي مياه الشوارع التي ربما بلطفت هذه الغاية. وتُسب عدَّد كبير من آثار هذه الخزانات إلى الرومان، ولكن هؤلاء كانوا قد رمَّموها وأعادوا استغلالها.

وبلغ عدد سكان قرطاج في مطلع الحرب الفينيقية الثالثة ٧٠٠ ألف نسمة حسب ما روَى سترابون. ولا شك ان هذا الرنم مبالغ فيه، لكننا لا نعرف نسبة هذه المبالغة لأننا نجهل مقدار المساحة المبنية من المدينة.
الفصل الرابع
التاريخ

لقد ورد في الأسطورة التي تكلمنا عنها سابقاً أن أليسًا هي التي أسسَت قرطاج "المدينة الجديدة" سنة 814 قبل الميلاد.

1 - قرطاج في العصور القديمة. - نكاد نجعل كل شيء عن تاريخ المدينة القرطاجية في القرن الثامن قبل الميلاد، ولم يعلق في ذهننا من ذلك التاريخ سوى المعونة التي قدمتها صور القرطاج، والنموذج البالغ الذي حققه لها حكامها الفاسدون والأقوياء. فأصبحت المدينة الجديدة السيند الحقيقي للمستعمرات الفينيقية المتشرفة في غرب البحر المتوسط كما عدّت هذه المستعمرات فيا بعد أساساً لامبراطوريتها. ولم يحول الفينيقيون مراكزهم التجارية إلى مستعمرات إلا عندما ازدادت سلطة المستوطنين اليونانيين فيها أو عندما خافوا من تمرد أهل البلاد الأصليين. وكان الفينيقيون إذا ما تهادّت مصالحهم في تلك المراكز، يعولون على القرطاجيين الذين يرسلون الجند والبحارة للدفاع عن مواطنيهم ولحماية حقوقهم. وفي القرن السابع والسادس، أخذت قرطاج تجلّ في هذه المستعمرات محل صور التي
شغلت بمقاومة الآشوريين الغزاة، ومن بعدهم الفرس الذين حاصروها ودمرواها.

ولصور المستعمرات أقدم من قرطاج. تقع في وسط العالم المتوسطي، وربما تمكّنت ان تلعب دور الحماية الذي لعبته المدينة الفونية، ومن هذه المستعمرات حضرموت وخاصة أوثيك التي لا يتجاوز بعدها عن قرطاج عشرين كيلومتراً، وهي أقدم منها بعدة قرون. غير أن الاختيار وقع على قرطاج لتصبح "المدينة الجديدة" لأن أصلها ملكي ولأن قسماً من ارستقراطية صور قد هاجر مع ثرواته إليها. وهكذا غدت قرطاج صوراً جديدة وذاعت شهرتها لا لموقعها الجغرافي وحسب بل لأنها ورثت أيضاً عن صور دورها التاريخي.

ولا نعرف أسباب القواد الأول الذين أمّدوا قرطاج بالوسائل العسكرية والبحرية لوراثة صور. وفي القرن السابع قبل الميلاد، أسسَت المدينة الفونية مستعمرة لها في جزيرة "إيبيسا". وفي القرن السادس استولى "مالكس" على السلطة في قرطاج بعد أن نجحت حملاته العسكرية في صقلية وساردينيا وفي أفريقية نفسها.

2- الماغونيون. - أسهمت أسرة "ماغون" القرطاجية الغنية أكثر من أيّة أسرة أخرى في بناء عظمة المدينة. فقد أوقف الماغونيون
Plan archéologique de Carthage
بين سنة 535 وسنة 450 قبل المسيح التوسع اليوناني في المتوسط. وَرَعَّوا التجارة القراجية في أسبانيا وجزر الباريال وجزيرة سردينية وفي جزء من صقلية.

ورفع هؤلاء عن كاهل قراطاج الجزية التي كانت تدفعها للأفريقيين منذ تأسيسها، وأخضعوا لسيطرتها إمبراطورية واسعة تمتد في البحر وفي البر الأفريقي، من الساحل الأفريقي الشمالي حتى السنغال. ويعود تاريخ رحلة حنون البحرية إلى هذه الحقبة التي عرفت فيها قراطاج ازدهاراً كبيراً، إذ شملت سلطتها في أفريقيا أراضي تونس الحالية، وكانت أسبانيا من أهم مصادر الثروة الفينيقية. فلقد استغل الفينيقيون مناجم منطقة طرطوس في جنوب أسبانيا منذ زمن بعيد. ويعود تأسيس "غادير" (في الفينيقية تعني "المكان الموسّر") الذي تسمى اليوم كادس، إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح. ويدو ان الفينيقيين قد أفادوا من مناجم الفضة في هذه المنطقة قبل ذلك الوقت، وأخضعوا لسيطرتهم التامة منذ الألف الثاني قبل المسيح مضيق جبل طارق الذي عرف باسم "أعمدة هرقل" حتى يضمنوا لأنفسهم دون غيرهم الطريق الى المحيط، فاستأثروا بتجارة القصير في بروتانيه وانكلترا، وربما لينفردوا أيضاً بتجارة ذهب السنغال.

واحتلوا صقلية منذ مطلع الألف الأول قبل المسيح لكن
اليونانيين غزوا هذه الجزيرة وأجروا المستوطنين الفينيقين فيها على التجمع في بعض المدن، على الساحل الجنوبي المجاور لأفريقية. ومن هذه المدن «موتيه» و«سولوبيس» و«باتورمس». أما المدينتان الأخريتان فتدعيان اليوم «سولونت» و«بارما».

واحتل الفينيقيون جزيرة مالطة وجزيرة بانتلاري وجزر الباليار وقسمًا من جزيرة سردينية، واستخدموا هذه الجزائر كمحطات بحرية في ملاحتهم التي اعتمدت على الإبحار بمحاذاة السواحل. ولم يخلعوا على هذه المراكز، في البدء، أي طابع عسكري ولم يستخدموها إلا لمراعاة مراكبهم. فيها، وليتهم منها في توقفهم، وليعنزون فيها على الزبائن لبضائعهم. يبدو أن اليونانيين بضغوطهم العسكري وبنافستهم التجارية قد أجروا القرطاجيين على ان يحلوا بالقوة في المراكز التي تضمن استمرار علاقات قرطاج التجارية مع بلاد «طرطوس» والتي تفتح أمامهم طريق القصدير والذهب.

وبدلاً التراجع الفينيقي جرى الغزو اليوناني على الطاعن الاقتصادي الصرف الذي ميّز المراكز الفينيقية الغربية وبدلاً أيضًا على ضعف الوجود العسكري في تلك المراكز.

والأجدر بنا أن نطلق تسمية اتحاد اقتصادي وجري على تنظيم قرطاج لسياستها الخارجية، لأن هذه التسمية أفضل من كلمة امبراطورية للتعبير عن واقع قرطاج الخارجي.
3 - الحروب الفونية. - تُناضلت كل من قرطاج وروما عن الأُخرى خلال عدَّة قرون واشترطت روما بسِيادَتِها البرية والأوروبية كما اشتهرت قرطاج بسِيادَتِها البحرية والافريقية. وبعد ذلك، توقدت بين البلدين العلاقات التجارية التي لم يعَّكر صفُوها سوى طموح روما الفائق الحد. فبعد أن استولت هذه على اليونان الكبيرة، أرادت أن تضمّ إليها صقلية. ونشبت الحرب بسبب خلاف بين أهالي «مسينة» الذين دعمهم روما وبين أهالي «سيراقوزا» الذين دافعت عنهم قرطاج.

وُدعت هذه الحرب بالحرب الفونية الأولى». وحقَّقت الرومان أول انتصار في «ميلس» سنة 260 قبل الميلاد، ثم حاولوا أن ينزلوا جيوشهم في قرطاج لكن «كسانتيب» دحرهم سنة 255. وأستأنف القائد القرطاجي هملقار برقة الحرب في صقلية، إلا أن القرطاجيين انهمروا في جزيرة «إيغات» في سنة 241 وأجبروا على طلب الصلح. فكَّلهم السمّا غالبًا إذا أضفروا إلى التخلي عن صقلية، ودفعوا في عشرين سنة جزية قدرها عشرون مليونًا.

وفي غضون الهدنة التي عقبت هذه الحرب واستمرّت اثنتين وعشرين سنة واجهن الثانيان مشاكل كبيرة. فلقد أشرف روما على الهملاك بسبِّب تفاوت الغالبيَّتين ضدها، كما تمَّرت في قرطاج لأنه لم يدفع لهم منذ زمن طويل. وخاضت المدينة الفونية حربًا لا هوادة فيها دامت ثلاث سنوات، ونالت فيها بعض عبرية قائدها هملقار
برقة، الذي حاصر المرتزقة في طريق بين جبلين يقال له " طريق الفأس" ونُقِل بهم وقتل الناجين المحتجزين في تونس.

وعظمت بذلك شعبية هلمبار برقة فتغذف منه مجلس الشيوخ في قرطاج. وأثارت مطالب هذا القائد الخاص بالحكومة والجيش. الشكوك حوله، فأرسل إلى إسبانيا حيث أسس إمبراطورية جعل قرطاجنة عاصمتها، ونظم جيشًا متخفاً وثبت في روح الطاعة ولم يخل في الإتفاق عليه، وسلَّم قيادته ابنه هنييل سنة 270 ق. م.

وربى هلمبار هنييل على بعض روما، ولم يلبث هذا الأخير، عندما بلغ السابعة والعشرين، أن ورث الإمبراطورية القرطاجية في إسبانيا، وخلف أباه في قيادة الجيش. وراح يلفي الاتفاقات التي تهدد الوطن الأم، ولذا هاجم سنة 219 ق. م مدينة "سوغوتينا" التي تحمل رومة، فأذى ذلك إلى اندلاع الحرب. وزحف هنييل نحو إيطاليا، واجتاح نهر "الابير" وجبال "البيرينيه" ونهر "الروان" وجبال الألب. وتغلب على كل المحن والعقبات التي واجهته، وقد نصف جيشه قبل أن يلتقي بالجيوش الرومانية، لكنه انتصر عليها في "تريبية" ثم عند بحيرة "تراس بانثة" سنة 217 ق. م. ولم يستطيع أن يزحف في السنة التالية إلى رومة، بسبب النقص في عتاد الحصار، فشل حرب كان وانتصر فيها إلا أن انتصارات أنبكته، فتراجمه إلى "كايرو" ليتظرر
هناك المساعدات. ولم يجد الانتظار نفعاً لأن مجلس الشيوخ في قرطاج
دبىت فيه الغيرة من نجاح هنييل فرفض أن يمده بالمعلومة. وسرعان ما
أقبل إليه أخوه أسدروبال حاكم إسبانيا، يوافقه الأسبان والعاليون،
لكنه قتل عند ضفاف الميتور سنة 207 ق.م. ولم تستطع سيراقيزة
ان تنجد هنييل لأن رومة استولت عليها. وتمكّن وحدها أن يقهر
الجيش الروماني في كلالابره. عندئذ تحالف سبيسيون الأفريقي مع
المونوميديين، جيران قرطاجة وعُرفَت مهاجمة المدينة الفونية. فدب
الانفراج في رومة عندما رأى ذلك الذي أرجعها مددة خمس عشرة
سنة يترك إيطاليا. وبعد أن فقد هنييل القسم الأكبر من جيشه، لم
يمكن ممن التغلب على سبيسيون وانكسر في زامة في أفريقية سنة
202 قبل الميلاد، وطلب الصلح. وبدأ هذا الصلح قاسيًا جداً
القرطاج التي اضطررت أن تدفع لرومة أربعة وخمسين مليونًا وأن تدمّر
أسوطا الفوني وأن تسح جيشه.

أعلن استقلال المونوميديين واعترف بقائدهم مازينشة ملكًا
عليهم.

وتعقب الرومان هنييل فالجها إلى انطيوخس ملك سوريا،
ونصح هنييل أنطيوخس بأن يظفّح حلفاً يضم أعداء رومة من
الشرق إلى الغرب. وبعد أن أشتدت مطاردة الرومان للقائد الفوني

58
اختبا في «بيشينية»، لكنه ما لبث أن انتحر هناك سنة 183 قبل الميلاد. وهكذا عُدَّ من أعظم القواد العسكريين في العصور القديمة ومن أذكّاهم بلا ريب.

وبعد نصف قرن من العمل المضني. استطاعت قرطاج أن تستعيد شيئاً من الازدهار رغم الجزيرة الفادحة التي بقيت تدفغها لرومة. ولاحظ «كاثون» أثناء تجوله في أفريقيا هذه النبضة في قرطاج عدوّ الرومان. وبعد عودته إلى روما راح يردّد على مسمع مجلس الشيوخ الروماني عبارةه الشهيرة: «يجب أن ندمر قرطاج».

وشنت روما حرباً ثالثة دون أي سبب واضح سوى ما بدأ من سوء نيتها تجاه قرطاج، فتكّرر بذلك ما حدث في الحرب الفينيقية الأولى. بينما كانت قرطاج تبدي رغبتها في السلام وتسليم لرومة مراكها ومعداتها الحربية.

وأرادت روما ان تفرض على قرطاج شروطاً أسفي وأثقل وطأة، فأدرك الفينيقيون أن لا مفر من الحرب وقرروا على المقاومة. فدام صراعهم سنتين من 149 إلى 147 قبل الميلاد.

4 - حصار قرطاج وسقوطها. - عُرفت قرطاج ببرفها وخيابها للتجارة والمال، كما عُرفت، قبل سقوطها بستين، بأهم الفضائل الوطنية والشجاعة التي لا تضاهى.

لقد أباد الرومان جيشها في «نفريس»، وحاصرها عدوّ يملك 59
قوات ضخمة، فلم يبق لها أيٌ أمل بالنجدة من الخارج، واستخدم سكانها بذكاء وشجاعة كل الوسائل المتوفقة لديهم ليدفعوا الحصار عن مدينتهم فأنشأوا أسطولاً بأخشاب بيوتهم، وصهروا الحلي وصنعوا من شعر النساء جبالاً لسفينهم. وأحاطوا ببناء هذا الأسطول بالكتان، فنجحت في الخروج من المرفأ الداخلي خروجاً مفاجئاً عبر منفذ خفي. لكن أميرال الأسطول كانت تعوزه الحرابة، فأدرج المعركة في اليوم التالي، ووزل عنصر المفاعلة وضاعت منه فرصة ثمينة.

ودعت المجاعة في المدينة، غير أنها بقيت تقاوم.

وبعد أن اخفق «سيبيون» عدة مرات، نجح أخيراً في دك أسوار المدينة فاختراقها إلى المرافئين. وقفت قرطاج بالتالي أملها بالنجاة، إلا أنها لم تسقط وظلقت تقاوم ستة أيام وست ليال، إلى آخر بيت وآخر شارع، واخر رجل. كان كل شيء فيها جارب. وكاد الجميع يهلكون، لم ينج في اليوم السابع بضعة آلاف. وبلغ «سيبيون» قلعة بيرس وأصبح سيّد المدينة.

وفي معبد «أشرمن»، على قمة التلة، أحاط بعض المحاربين بالقائد القرطاجي «هسدروبال» وبأمرته وأولاده وظلوا يقاومون بعد أن أضناهم القتال واشتدّ عليهم الجوع. وعزم «هسدروبال» أن يذهب سرا إلى «سيبيون» ليستجدي العفو. وسرعان ما علمت أمرأة القائد القرطاجي بضعف زوجها، فصعدت إلى سطح المعبد مع
أولادها، ونادت سبيون بهذه الكلمات: "إنني أرجو لك أيها
الروماني كل النجاح لأنك تتصرف بالحقوق التي تمليها الحرب،
لكني أطلب إلى ألهة قرطاج وعليك أن تأخذوا هسودروبال" كما يجب
لأنه خان وطنه وآلهته وأمرته وأولاده. ثم رمت بنفسها مع أولادها
ومن بقي من المحاربين في نار أشعلتها لهذه الغاية. وأكملت بهذه
التضحيه العظيمة المجد البطولي الذي عرفته نهاية قرطاج سنة 147
قبل الميلاد.
الفصل الخامس

الدين

إن عناصر معرفتنا لديانة الفينيقين في أفريقيا هي متوفّرة إلى حدّ ما. فلقد عثر في قرطاج على ندوار مقدّمة للآلهة، تحمل كثيرةً من النقوش التي تشير إلى أسماء الآلهة وخاصّة الذين يقريب إليهم هذه الألواح النقوشية. كما تشير إلى أسماء النازرين المؤلفة في الغالب من نفطة «إله» مسببة بلفظة أخرى، ومن هذه الأسماء مثلًا: «هتيبيل» الذي يعني فضيل بعل، و«بودشمون» الذي يعني خادم أشمون. وتساعدنا هذه النقوش على معرفة عدد كبير من الآلهة الذين كانوا يُكرّمون في قرطاج.

وتؤلف «تعرّفات الدبّائح» مجموعة أخرى من النصوص التي تبرز بصورة أوضح بعض الحقائق حول الدين الفينيقي. وتطلق تسميته «تعرّفات الدبّائح» على خمسة نقوش (اثنتان منها كاملان) موضوعة في المعابد لتعيين حصّة الكاهن وحصّة النازي، حسب قيمة الذبيحة ونوعها.
ولقد تُرجمت هذه التعرفات فظهرت قرابتها من الطقوس الإسرائيلية التي أطلعتنا علىها بواسطة التوراة وخاصة بواسطة «الآوي».

وتدل المعلومات المستقاة من دراسة الفن الديني ودراسة الزخرف الذي يَزْيَّن النذور على الصلة الوثيقة القائمة بين الدين الفينيقي في أفريقيا ودين الفينيقيين الشرقيين الذي أصبحت معرفتنا له أعمق منذ أن تمت اكتشفات رأس شمرا. فهذه المدينة الواقعة في شمالي سوريا ليست سوى مركز فينيقي يرجع عهده إلى الألف الثاني قبل الميلاد، اكتشفت فيه مجموعة من النصوص الدينية تعود إلى القرن التاسع عشر قبل المسيح وتوضح لنا البيئولوجيا الفينيقية. فالأساطير المروية في هذه النصوص قريبة جداً من قصائد سفر التكوين وهي تظهر الأساس المشترك بين دين الفينيقيين والدين الإسرائيلي قبل نزول الوحي على موسى.

وتمكّن القرطاجيون ببطقوس هذا الدين الكنعاني القديم حتى وقت متأخر وبعد السبب في ذلك الال بعدهم عن الوطن الأم وتشبيه بلوغية ميزة محافظة تبنّى حرصهم على استمرار الطقوس والتقاليد بمثابة لتأثيرات الخارجية.

وعرفنا كبار آلهة قرطاج من خلال النصوص الفونية ومن قراءة نص يوناني يدعى «قسم هنٍّ يعل».

وهناك أكثر من أربعة آلاف نقش فون مهداً جمعها إلى الرثبة تانيت والربّ بعل حموّن. ونكدلا نجد بينها سوى عشر عبارات توجّه
وكان يقصد بلفظة «تانيت» التي قد ترجع إلى أصل أفيزي الإلهة الفينيقية الكبيرة إيلات التي تدعى أيضاً أشيرات.

وتتمثل ألواح نقشية كثيرة هذه الإلهة على شكل كوكب الزهرة ينصل به هلال. وينجم عن هذا الرسم النجمي المزدوج صفة مزدوجة لهذه الإلهة. فهي من جهة تنتمي إلى مصادر قرية يدل على مسامتها للعدو بالله كأكيلسات في الحقيقة الرومانية. وتتميز من جهة ثانية بصفة الخصوبة التي جعلتها تعرف باسم «نوتريكس» وتعرض على صورة إلهة أم يبريز إليها برمانية أو حام أو سنا أو غيرها من الرسوم.

وليس بعل حنون الإله قرطاج الكبير إلا نظير الالله إل سيه المانيون الفينيقي. وهذا دعاه اليونان زوس أبا الأله. وشبه بعل حموم آسياناً بالله أبولو بسب رسمه على صورة شمس. وفي الحقيقة الرومانية عرف باسم ساتورن في دوغا وقسطنطين وبورغون. وكما انتشرت عبادته في قرطاج، انتشرت أيضاً في هذه الامكاني وطابقت عبادة ساتورن وتضح ذلك من خلال الألواح النقشية وذبائع الأولاد.

ولفظة «بعل حموم» تعني سيد الألواح النقشية، وربما اشتقت كلمة «حموم» من كلمة «حِمّامين» التي تدل على الألواح النقشية.

وفيما بعد، لقب الالله إل في قرطاج «سيدي الألواح النقشية».
وذاعت له في القدمين شهرة لا تتخلو من الرهبة. لأن أبكار قرطاج،
ذكوراً وإناثاً. كانوا يحرقون أجياه ليقربوا إليه في نذور فردية أو جامحة.
وأما الإله أشمون فقد بني له في المدينة الفونية معبد قد بقع على قمة
بيرسا. وأسيا العلم التي تضم لفظة أشمون بانت كتيرة الاستعمال. وفي
قرطاج كا في صيدون مثال هذا الإله الإله اسكولاب.
وملكارت، سيد المدينة، هو الإله صور الكبير وشفيت التوسـع
الصوري، شُبِب برقيس لآثرها الأسطورية المشابهة. وانتشرت معابدها
في كل مكان استعمه الصوريون. وأشهرها معبد قادس ومعبد
لكسوس، وهما مدائن تقومان على جانبي مضيق جبل طارق.
ويدخل اسم ملكارت في أغلب أسيا العلم القرطاجية، فاسيا
"بدرملكارت" و"عبد ملكارت" هما من أكثر الأسيا شيوعاً.
ولا يقصر البانتيوين القرطاجي عل الآلهة الذين ذكرناهم وإعا
يتآلف من آلهة آخرين منهم عشتار وورش وآرس وسافون وغيرهم.
وبطابق البانتيوين الفينيقي رغم بعض الأسيا المختلفة.
وخصوصاً آلهة قرطاج على بعض النقود وعلى كثير من الخزافيات بعد
أن خلقت عليها المظهر واللباس المعروفين في فن الرسم الديني اليوناني.
وبقيت العقيدة والطقوس الفيونية شرقياً في شكلها وفي روحها الى مدى
بعيد.

٦٥

٥ - تاريخ قرطاج
ولم يصل إلينا أي مثال ديني هام عن قرطاج الفنية. ونтелينا النصوص على أن بعض هذه التماثيل اعتبرت بثانية مقام للآلهة... وهي لم تكن في غالب الأحيان سوى حجر مرفوع أو نصب يعتلي المذبح المعمد. وفي صور وصيدون ويفوس وقادس كرم حجر مدهون بالزيت كما هي الحال اليوم في مكة.

ويظهر على الألواح النقوشية المهددة لتانية ويعلل رسوم تشير بوضوح إلى هذين الإلهين والصورتها وتمثل هذه الرسوم نصبًا وحجرًا وأذني إله تصفيغات إلى الصلاة، ويد إله تبارك من أعلى اللوح النقوشي حسب تقليد شرقي استمر في سورية بعد أن أصبحت اليد من برونز أو حجر.

وهناك أيضاً رموز أكثر تعقيداً وأنتشاراً كالقينعة الصنم، وهي ليست في الواقع سوى نسخة لمثال صغير مصنوع من الفخار وشبه بالتماثيل القبرصية المصدر. ومن الرموز أيضاً شعار مقدّس هو الصولجان الذي يتألف من دائرتين أو دائرة يعلوها هلال.

وترسم العلامة التي يقال لها "علامة تانيت"، والتي أصبحت فيما بعد ختم قرطاج. لا على الآثار ذات الطابع الديني، وحسب بل أيضاً على الأجر والصباح والآنية الخزفية وغيرها «أنظر الرسم في الصفحة 160».

لكن تسمية هذه العلامة تثير الشك حالياً لأن هذا الرمز يرتبط بالله بقدر ما يرتبط بدانة.

وتذكر الرمانة والخام والسمك والسنبيل بالخصوصة كما يذكر القمر...
والشمس وكوكب الزهرة المشع بالطابع النجمي للآلهة.

١ - المعابد

لسنا نعرف معابد قرطاج معرفة حقة، لكننا نعلم أنها كبيرة. فعندما ينتمس على المرتفع المشرف على المدينة، ويأتي آخر معقل دفاعي اذ لجأ إليه من بني من القرطاجيين عندما حاصر سبيون المدينة، كما أن امرأة هندروبال قد رمت نفسها مع أولادها من على سطحها فاتوا جميعاً.

وتقوم معابد بعل حممون وتانية قرب البحر، على مسافة غير بعيدة من المرفأين.

وقد تمكّن من تحديد موقع معبد تانية على التقرب إذا ما استعن بالإلواح النقوشية الكبيرة التي عُثر عليها بين محطة درماش والبحر. واكتشف في غرب المرفأ المستطيل، في الموضع الذي يقال له حالياً سلمنبو، معبد بعل حممون أو بالأحرى كشف عن المذبح وقطعة الأرض المسورة المخصصة للذبيحة البشرية، كما كشف هناك عن المعبد الذي كرسه فيما بعد للالله ساتورن.

ولم يُعثر على أي آثر لبنيان هام، وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة، لأنه يبدو أن القرطاجيين قد حرصوا على بناء معابدهم على اختيار الامكانيات المشرفة وهم يقلّدون بذلك الكنعانيين الذين بنوا معابدهم في المواقع العالية.

٧٧
وتُشكل أمكتان العبادة هذه ساحة رحبة برنيعة الروايا ومسطحة يحيط بها جدار يقوم في داخله المصلّي الذي يحتوي على صورة الإله. واتخذ هذا المصلّي منذ مطلع القرن الرابع قبل المسيح هيئة معبد يوناني كلاسيكي صغير، لكنه استوحى بادئ ذي بدء الأبنية المصرية المدعوة ناوس. والناوس هو مصلّي مكعب مبني بالحجارة الضخمة في أغلب الأحيان، يعلو واجهته الرئيسية إفريز وزخرفة مختلفة.

والإضافة إلى ذلك، يقوم داخل السور حوض النسيج إذ اكتشفت منذ وقت قريب في مذبح سلمبو آثار أحواض وآبار. ويشتهر داخل الجدار أيضاً مذبح أو عدة مذابح مرفوعة عادة لكني يتمكن المؤمنون من متابعة الذبحة. وتتصل بالسور أيضاً مواضع خاصة بالكنيسة.

ولا شك أن عنى هذه المعابد الملائكة بالندور والأشياء المقدّمة لآلهة يثير الدهشة. وكما نعلم، غُثر في هذه المعابد على كؤوس وأحواض زاوية من ذهب.

ويتصب قرب المصلّي داخل الجدار عمود منفرد يشد تتمال مخلوق ميثولوجي أو رمّانة.

٢ – الإكليروس

يدعى الكهنة غالباً في النصوص الفونية باسم «كوهن». ولم تكن الكاهنات نادرات بل حملت الكثيرات منهن لقب رئيسي كهنة وربًّا.
أطلق هذا اللقب على من سلّم أعلى وظيفة في المراتب الدينية الفنية.
وورد ألقاب دينية أخرى كأمير كهنة وكهنة من المرتبة الثانية وأزواج عشائر أخرى.

ويبدّو جليًا من خلال الانسجام المشترى إياها في النذور ان الوظائف الدينية العليا كانت غالبًا وراثية مثل سائر الوظائف المدنية الرفيعة. ولا يخلف الواقع ما ذكر عن كبير كهنة قرس الذي طلب إلى أليسا عند تأسيس قروطاج أن تخضّ أسرته بالكهنوت الوراثي.

وتمتّع الكهنة ببعض الامتيازات الأساسية والتأثير الحقيقي ولكن يبدو أن سلطتهم لم تتجاوز حدود العبادة.

ويتألف اللباس الكهنوتي من ثوب كتان طويل وشفاف ويمتّع عند الكتف اليسرى منه شريط مستقيم، وربط الكاهن شعره برباط من المعدن اللين، وأحيانًا يغطي رأسه بقبعة عالية شبيهة بالطربوش.

وترتبط صورة امرأة على غطاء تابيت رائع عبر عليه في مدفن سانت مونيك وما زال يعرض في متحف قروطاج. وقد يمثل هذا الرسم كاهنة ترتدي لباس الإلهة التي تخدمها وتغطي رأسها بوشاح ويكسو جسماها جناحان طويلان وتحمل باحدي يديها حامدة والأخرى بحمرة للبخور.

ويبدو في تلك الكهنة عدد من الأشخاص التابعين، ومنهم الحلاقون المقدّمون والموسيقون وحملة المصابيح وغيرهم.

٩٩
3 – العبادة

إن معرفتنا لطقوس العبادة القرطاجية ما زالت غير كافية، فالألعاب الكبيرة التي احتفل بها الفينيقيون في الشرق مبناة الأحداث المهمة من التقويم الحكلي ربما عرفت أيضاً في قرطاج، ولكن تعوزنا البراهين لاثبات ذلك. وتشير قطعة من النقوش إلى عيد كان يستمر خمسة أيام تقريباً من كل سنة، ويقع في الربع دون شك لأنه تقدم في الالهة بواكر الزروع، والاغضان المزهرة وغيرها. ونُطل في الوقت نفسه في فينيقية عيد كبير هو عيد قيام ملك أرت. وغاية هذا العيد هي بعث الحياة في الالله بواسطة قوة النار، ولا تملك أي دليل على ما إذا احتفل به أيضاً في قرطاج ولكن لا يبدو ذلك بعيدا عن الواقع إذ إن اسم الالله ملك أرت لا يأتي في قرطاج رواجاً بين الشعب كما يتبين من دراسة أسباب الأعلام.

وأما الفعل الديني الذي يشترك به المؤمن في الحياة الدينية فهو في الأساس الربحة. فالقرطاجيون يقدّمون الربائع ليكسبوا حظوة الالله ويخففوا من غضبها، وليكفرها عن خطاياهم. وللربحة نتيجة مزدوجة فهي تحرك المضحي قبل كل شيء من خطاياه بواسطة ضحية يملكها بعد أن يشتهي نفسه بها، ثم إن الربحة تربط المؤمن بالله وتعقد بينهما تفاؤلاً حقيقياً.

وتعرض لنا "تعرفت الربائع" الآتية من قرطاج الطرق الرئيسية.
المعتمدة في تقدمة الذبيحة وتلتين الحصص التي ترجع إلى كل من الكاهن والضحي حسب الحيوان المقدّم والذبيحة المقرّبة. ولقد درس دوسوً هذه التعريفات وأظهر في الوقت نفسه قرابة الطقوس الفنية من الطقوس العبرانية.

والذبائح ثلاث: محرقة فيها تُتفتح الضحيّة كلياً بالنار؛ ذبيحة الاشتراع، وذبيحة التكفير.

وتعتبر ذبيحة الأبيقار التي يقع على ذكرى كثيرة منها في التوراة، جزءاً من أقدم التقاليد الكنعانية. ولا شك إن هذا النوع من الذبائح قد ظهر في قرطاج واستمر فيها إلى زمن متأخر، بعد أيّة مدينة أخرى. ولم يقدّم الوصيف ذبيحة ملك لبلد وحسب بل كان يقدّم أيضاً أولاً أكبر سنّاً عندما تدفع الظروف الخطرة بالمؤمنين إلى أن يوثقوا الصلاة التي تربطهم بالآلهة.

وتأيد الاكتشافات التي تمّت في قرطاج منذ عشرين سنة هذه الحقائق. فالذبيح الذي كشف عنه في سلمبو في الشمال الغربي من المرفأ المستطيل هو شبه يمّمذّج ببيت حنون الذي عثر عليه في أورشليم. وليس هذا المذبح الآخر سوى قطعة من الأرض محدودة ومكرسة وخصوصاً لدفن الضحايا المقدّمة كذبائح لبلد. فالآجر التي تحتوي على العظام المحروقة، وأحياناً على بعض التناءم، تُظهر في هذا المذبح ويعدها لوح نقوشي. وكانت هذه المساحة المكرسة في أقدم عهدها ذات أبعاد

71
ضيّقة، توضّع الآخر فيها داخل تجاويف الصخر وتطغى بطابعه من الحصى الدقيقة. وعندما تصبح هذه القطعة المسورة ممتلئة، تُغمر بطابعه من الرمل الأصفر. ثم تدفّن فيها من جديد مجموعة من الآلهة التي تحتوي على رفات الموتى الجدد. وكانت هذه الآلهة تجمع كل ثلاثة أو أربعة منها لبثوها لوح نقوشٍ أو حجر كبير مفصّل. وفي الطبقات العليا تعلّ الأنصاب محلّ الألواح النقوشية المزهرة.

ويبدو دين القرطاجيين قريباً جداً من دين فينيقييّي الشرق. فالآلهة الكبيرة في قرطاج تستأثر باللون الأزرق المختلفة وتحتفظ بطابعها الشريقي. وتدل الطقوس، الجامدة في تقليد قاس، على الإيمان العميق. وعلى الاعتقاد بالبقاء الطوباوي للشخص المضحي به، وعلى عادة الخضوع لمعتقد والقبول به بحرية.

وتستّخت العبادات الفنية تحت الاحتلال الروماني في جميع المناطق البعيدة قليلاً عن تونس والبالية بمناورات تأثر الكتائب الرومانية. وفي قرطاج نفسها بقيت عادة كبار الآلهة القرطاجيين معرفة بعد أن اتخذوا أديانًا لاتينية.

وتدل سرعة انتشار المسيحية في أفريقيا الشماليّة، والعظمة التي بلغتها الكنيسة الأولى في قرطاج بإيمانها وشهدائها ولاهوتيّها على الخمرة الطيبة التي تركتها الميزات السامية للدين الفوني في نقوس السكان الأصليين. ويتطلب تقريباً عصر تشتّت المسيحية في القرن الثاني عصر المراكز الفوينية في أفريقيا.
الطقوس الجنائزية.- ما زالت معرفتنا للطقوس الجنائزية غير كافية رغم اكتشاف عدد كبير من المدافن في قرطاج.

وبعد أن الأموت لم يكونوا موضوع عبادة، لكن الاحتفالات التي أحيط بها الميت هدفت إلى أمرين: فهي تضمن له قبل كل شيء النعمة الالهية في العالم الآخر. ثم إنها تحفظ من الانتقام الذي قد يختم في النفس القاسية.

وتحمل بعض الألوحة النقوشية التي اكتشفت في مذبح سلمبو زخارف تعلق بخلود النفس، ومن هذه الزخارف الأوراق المصورة على شكل قلب، وأكاليل الورق، والآنية الخضراء. ويتكون من التصوير هذا بعض المشاهد عن الولائم الجنائزية.
الفصل السادس

المؤسسات والعلاقات الخارجية

١  التنظيم السياسي

أن ما نعرفه عن المؤسسات السياسية في قرطاج يعد غير كاف كما أن نكاد نجهل كل شيء عن مؤسسات الفينيقية السياسية، غير أن التوراة تعرض علينا بطريقة غير مباشرة بعض المعلومات عن صور، فقد تمتَّعت هذه المدينة مثل كل مدن فينيقية باستقلال كامل، وتحكم ذاتي تجسد في ملكية وراثية. وكان يختار الملوك مبدئياً، عند تبدُّل السلالة الحاكمة من أعرق الأسر التي ترجع إلى أصل إلهي.

ومنذ عهد بعيد جداً، أخذ يتحدد سلطة هؤلاء الملوك مجلس شيوخ يَنتمى أعضاؤه من الأسر الغنية، وشيوخاً فشيئاً راح هذا المجلس يفرض نفوذه وفي القرن الخامس قبل الميلاد شرع يأسس جمهورية يرأسها قاضيان ينتخبان لسنة واحدة أو لعدة سنوات.

ويبدو أن تنظيم قرطاج السياسي قد مرّ تقيباً في هذه المراحل التاريخية التي مرّت بها صور.

وتروي الإسطورة عن تأسيس قرطاج، أن الملكة أليسا صحيحةً إلى
وفقًا لأعضاء من مجلس الشيوخ الصوري، هكذا يجد في الأصل إشارة إلى ملكة قرطاج يساعدة في الحكم، مجلس شيوخ.

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد، ورد ذكر بعدين: مجلس شيوخ، وجلسونواب ينتخبن الشعب.

ويحذروناء يهود، عن رجل أصله ملكًا، يفضل قيمته الشخصية، فيظهر لنا بذلك أن الملكية الانتخابية قد حللت محل الملكية الوراثية. ويدعون أن أسرة المغورين الغنية تمكنت من أن تسكن برمزم الحكم طوال القرن الخامس دون أن تلجأ إلى قلب السلطة، بفضل نفوذ مايون وتأثير أبنائه، ويفضل النجاح الذي كثر آهالهم البحرية والعسكرية. ولقد أنشئ في هذه الفترة مجلس يتألف من مئة قاض حفاظًا على سلطة الدولة من استبداد الحاكم الفرد.

والعلومات التي يفند بها المؤلفون القديمة في القرن الرابع هي أكثر دقة.

فلقد كان هناك مجلس: مجلس شيوخ يضم ثلاث مئة عضو على الأقل، وجلس دائم ينتقد أعضاؤه من بين أفراد مجلس الشيوخ. ويدير دقة الحكم قضائيًا لمدة سنة واحدة، ورضي أعيد انتخابهما. وأما السلطة العسكرية فقد آلت إلى أيدي قادة ينتخبن مباشرة مجلس المواطنين ويطرد القاضي من القضايا الأساسية المتعلقة بالحكم أمام مجلس الشيوخ، فإذا لم يستطع هذا الأخير أن يقرر بأغلبية كافية يبعد إلى...
الشعب لأصدار القرار النهائي.

ويجمع مجلس الشيخ في قصر يقع في الساحة الكبيرة بين بيرسا والمرفأين ويعقد بعض جلساته في معبد أشمون.

ويقوم مجلس المواطنين بانتخاب القضاة والقواد، ويفصل الخلافات التي قد تنشب بين هؤلاء ومجلس الشيخ.

وأما زلنا نجهل الشروط المحددة التي تؤهِّل المواطن لأن يكون نائباً ولكننا نعلم أن حق الانتخاب قد حظر على الغربي والعميد والمعتقلين.

وتجدر الإشارة إلى أن الفلاسفة القدماء قد أعجبوا بدسُور قرطاج واعتبروه المِجِيب دستور «لاسيديمونا» من أشهر دساتير ذلك الزمن.

٢ - الحياة الاجتماعيّة

احتفظت بعض الأسر العريقة والغنية، التي يرجع أصلها إلى مدينة صور بمراكز الدولة ووظائفها الأساسية.

لكن القرطاجيين لم يكونوا عنصريين، فغالباً ما تزوجوا بالنساء الإنجليزيات. ولنِّي أهل الشرق واليونانيون المنفيّون من وطنهم، وسكان مالطة وصلّية، أحسن استقبال في قرطاج، وحصلوا في فترة قصيرة على الجنسية القرطاجية بعد أن برهنوا عن جدارة ونجاح.

وكان العبيد الكثيرون، وغالبيتهم من أصل أفريقي، يعاملون معاملة حسنة. وقد سمح لهم القانون بالزواج، كما أعتقوا مراراً.
أما النساء فكن يتمتعن باستقلال كبير ويمتنن غالباً على النذور ويرتدين إلى أرفع الوظائف الدينية كما أن بعض القرطاجيات بلغتنا أسياهونّ مرتبطة ارتباطاً ثقيلاً بصيغة المدينة، ومن هذه الامراء. ليسا سوفورينسب امرأة هستروبال.

وهناك قبور يعود عهدها إلى أقدم الفترات، قد أعدّت بصورة دائمة تقريباً لتسهّل اثنين. ويدعو أن عديد الزوجات لم يَعرف في قرطاج.

١ - اللباس. - يأتي أفضل الوثائق التي نملكها عن لباس الفينيقين من الرسوم التي عثر عليها في القبور المصرية. فالرجال النحاتون والعصبيون يرتديون ثوباً طويلاً ياقة الألوان مزيناً بخطوط من التطريز، وفي قرطاج، تلبس هذه الثواب التي تنزل حتى الأقدام فضفاضية أو تربط عند الخصر بحزام مطرز وتبدو أكمامها واسعة وقصيرة.

يرتدي القرطاجي في السفر أو في الطقس الرديء معطفاً يُبكي بأبايزم شبيهة بالدبابيس المستعملة حالياً والتي يقال لها «الدبابيس المزودة».

وترتدي النساء كذلك ثوباً قصير الأكمام، مشدوداً عند الخصر، ووشاحاً ذا أثراً يلقي حتى الأقدام تقريباً. كما يلبسن نعالة، ويرحى الرجال غالباً لحأم، ويبقى شعرهم قصيراً ويفطون رؤوسهم إما بقبعة خزفية أو بقلنسوة تشبه الطرووش التركية والشارشة التونسية.

٧٧
وتنسلع شعور النساء طويلة متموجة، ويلبسن حليّة كثيرة ويتبرّجن دونما اعتدال. فالشعب الذي كان يتجه في بعض الأحيان في ساحة قرطاج الكبيرة يبدو شبيهاً جداً بالشعب التونسي الذي يتجمع في بعض الأعياد ويظهر للعين أشدّ زهوًا من القرطاجيين القدماء.

2- السكن. - لا تملك عن المساكن القرطاجية إلا المعلومات التي وصلت إليها من مَنْجَدٍ اكتشف في جزيرة الإمارة، مزيَّن برسم تمثل واجهة بيت من أربع طبقات. ونعلم من خلال النصوص الكلاسيكية، ان المنازل عالية تتألف من عدة طبقات كانت تصنف من الساحة العامة حتى القلعة وتفصل بينها شوارع ضيقة.

* 

ومنذ بضع سنوات، صدر كتاب يتكلم عن مدن بلاد سباً وينضمّن جموعة من الصور الجدية بالإهتمام عن بعض المدن الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية والتي تكاد تكون مجهولة. وتألف هذه المدن التي تحيط بها أسوار عالية مصنفة من مباني كثيرة مزدحمة، ترتفع بمقدار ست طبقات، فالطبقة السفلى معدّة كمخزن يدخلها الضوء من الأبواب. وتتلقى السطرة مياه الشتاء فتحوّلها إلى بركة تجمع فيها داخل فناء الدار. وتبدو طريقة هندسة هذه المدن قديمة جداً فهي تعيد إلى ذهتنا هيئة المدن الفينيقية عامة وقرطاج خاصة وتدل على كثافة السكان فيها. وأما في ماغارا في ضواحي قرطاج فقد شيّدت مساكن رحبة.
تملكها الأسر القرطاجية الغنية وتحيط بها ساتين كبيرة.

3- الجيش

لم يدافع عن قرطاج طوال القرون الأولى من تاريخها إلا أبناؤها وأحياناً حلفاؤها. والواقع أنها لم تخصوص أي حرب بعيدة في هذه الفترة.

ونظم المغوليون الامبراطورية في القرن الخامس قبل المسيح وأسسوا جيشاً يلائم حاجة قرطاج في التوسع فجمعاً المرتزقة وجندوا الرجال في الأراضي التي ضمها إليها. وصمد عليبن أن تعهد ولو بشيء من الدقة أهمية هذا الجيش، فالأرقام التي أوردها المؤلفين القدماء تحتوي على اختلافات كبيرة.

ولم يقطع القرطاجيون عن إدخال أبنائهم في الجيش فقد تأسست فرقة للخيالة تضمّ بحارة شباب المدينة الارستقراطين، فأبدت شجاعة فائقة وأبدت بكاملها عدّة مرات.

ولم يتجاوز عدد جيش قرطاج المئة ألف رجل إلا أحياناً نادرة، وهو لم يكن نظامياً، ولذا ظل ينقصه الترقيم.

واعتاد مجلس الشيوخ ان يعالج المشاكل الخارجية بالاتفاق الدبلوماسي والتنازل المالي. ولم يدعو الى استعمال القوة العسكرية إلا مرغماً. من هنا الضعف في تدريب الجنود وقلة النجاح العسكري منذ القرن الرابع قبل المسيح، رغم غنى الخزينة وشهرة القدوة العسكريين.

79
الذين لم يُبد مجلس الشيخ نتيجةً سوى كثير من الخذر.

١- المشاة - يُحارِب الجُزء الأكبر من المواطنين والمرتزقة في صفوف هذه الفرقة ويحمل المشاة سلاحًا ثقيلاً ويُمكن بسهولة أو رمح قصيرين. وَسَلَح بعضهم بجراب أو بمقاليع يرشقون بواصلتها كرات من الفخار المشوي.

٢- الخيَّالة. - ويضم قسم صغير منها شباب الأشراف وأما القسم الأكبر فقد تكوِّن منذ القرن الرابع قبل المسيح من الفرسان النوميديين الذين يمتلكون أحبصتهم الصغيرة المعروفة بسرعة جريها وَيَتَحْمِّلُها للتعب. فهذه الأحصنة المتقددة القنوعة التي لا تُبالي بالعناء كانت تهب العدوُّ بهجاتها المتكررة وَتِتَشَتَت عند الالتحام.

ويبدو أن الخيَّالة لم تلعب حتى القرن الثالث قبل المسيح إلا دورًا هزيلًا جداً. وهَيَّبُه هو الذي جعلها تأخذ دورًا حاسماً في المعارك فقد عَرَزَها بالأصول الكبيرة فبلغت في الجيش الذي قاده أثناء حملة إيطالية، ربع عدد القوات الإنجليزية.

٣- العربات. - استعملت العربات حتى القرن الثالث قبل المسيح، ثم حلّت محلها الفيلة التي بلغ عددها في المعركة الواحدة حوالي المئة في كل صفٍّ. وكان يقودها ساس وبَعْبَعها جندود يعملون على تسهيجها بوخزها بأطراف الحرب ويقرون الأجراس حتى تنقض على صفوف العدو فتحطم مقدمته وتزروع الرعب فيه وتدوس جنده فَتَمَكَّن

٨٠
المشاة من أن يكلوا سحقه.

4- المدفعية. وتألف من معدات الخصى التي تضم أرجاً من عدة طبقات ومجانيق وعرادات وقذائف كرات من الحجر أو الحديد.

ويرفع الفينيقيون والقرطاجيون في هذا النوع من السلاح فضلاً عن مهاراتهم وعقلهم الخلاق. وقد لجأ الصوريون إلى جميع وسائل المدفعية فأجبروا محاولات الاسكندر الكبير مدة شهور طويلة.

واستولى جيش قرطاج على إسبانيا، وحقق نجاحًا في غاربته اليونان. وتمكن من تنظيم الامبراطورية، وجعل روما تنتج رغم اختلاف أوطان المحاربين في صفوفه ورغم وجود المرتزقة الذين لم يدفع لهم كفاً يجب.

وتخلّى القادة الذين اختارهم الشعب بالشجاعة وكانوا غالباً بارعين لا بل عباقرة أحياناً. وقد أبدى هملقًا وحين يعيل للعالم من خلال شهادات اعبدوها، دكاء وحنكة استراتيجية فذاعت شهرتها.

ودام حصار قرطاج وسقوطها ثلاث سنوات أظهر القرطاجيون خلاً طولًا وجرأة مدنية وعسكرية.

4- البحرية

لا ريب أن البحرية الفينيقية هي أشهر وأقدم بحرية في العصور الغابرة.

7- تاريخ قرطاج

81
ومنذ الالف الثالث قبل المسيح أخذ المصريون يقصدون إلى سوريا ولبنان ليأتوا بخشب الأرز الذي يحتاجون إليه في بناء السفن المسمى "كوبنت" على اسم المدينة الفينيقية "كن" أو جبيل. وتتصف هذه السفن الجبلية بالميزات الأساسية للمركب الفينيقي، فهي زوارق كبيرة ذات طرفين مرتفعين، ومجهزة بدرابزين متحرك على الارجح، وهي تسير بواسطة الأشرعة أو المجاذيف. ولقد جعل داخلها واسعاً لتنقل الحمولة الكبيرة. وتشتمل تجهيزها الذي اطلعتنا عليه من خلال الرسوم المصرية، على سارية مزودة بعارض وأربعة أشرعة مرتبة معلقة بجانبها، وهناك سلالم تساعد في الوصول إلى مختلف أجزاء السارية، وتنافر الدفعة من محاذيف كبارين مثبتين في المؤخرة. ويلاحظ ان هذه الزوارق الكبيرة ومستدورة هي جدود "للأهون" الذي ما زال يستعمل في الشرق المتوسطي.

وأما المراكب الخاصة بالحرب فتختلف في هيئتها: فؤخرتها مرفعة بينا تنتمي مقدمتها بنتوء بلامس سطح الماء ويقع مراكب الأعداء إذا ما نفوذت له قيادة ماهرة. وتسير المراكب البحرية بواسطة صفين أو ثلاثة صفوف من المجاذفين.

ورُفِّت قروطاج بحرية صور، فلاقق الشهرة نفسها ولا يعود الفضل في ذلك لقوّة مراكبها وحسب، بل أيضاً لخبرة بحارتها الذين لم يعرفوا البوصلة وإنما كانوا ينتدون بكوكب الدبّ الأكبر.
وعرفت في صور مراكب «تارسيس» التي بلغتنا شهرتها من خلال التوراة والاهنام الذي أولاهما يهود الملك سليمان. وهي تعتبر جدولاً للمراكب التجارية التي كانت قرطاج تملك الألف منها كما يملكها بجهوتها أو بحورتها. ولقد استخدمت مع رجالها لنقل الجيوش القرطاجية والمعدات وغيرها عند نشوب الحرب لأن البحرية الرسمية غير كافية في قرطاج. وتحمي هذه البحرية الرسمية في زمن السلم منافذ الأقاليم الخاضعة لنفوذ قرطاج التجاري من القرانسة ونحو القوافل البحرية وتهاجم في زمن الحرب أساطيل العدو. ولقد عُول عليها في معركة اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، كما أخذت في القرن الوسطى تفرغ حمولتها في سيراقدوزا. وتجدر الإشارة إلى أن الجزء الأكبر من الحرب الفونية الأولى قد دار في البحر. ولا يخفى علينا أن الرومان عندما قرروا بناء أسطول حربي قلّدوا أسطول قرطاج.

وراحل جموع قوات الأسطول القرطاجي الرسمي بين مئات ومئات سفينة. وفي غضون الحرب الفونية الثانية، لم يتجاوز عدد السفن القرطاجية التي اشتركت في المعركة المئات. ولم تحتفظ المدينة عند الاتفاق على عقد الصلح، سوى عشرة مراكب ذات ثلاثة مجاذيف وأحرقت سائر مراكبها في البحر على مسافة قريبة من شواطئها. وبعد أن انهزمت لم تخفف باتفاقياتها، وكانت مجرد من السلاح تقريباً عندما حاصرها سيبون.»

83
وفي سنة 147 قبل الميلاد أعاد القرطاجيون بناء أسطول من خمسين مركباً ضخماً والرومان عند أسوار مدينتهم. وحاول هذا الأسطول الذي وضع فيه أبناء المدينة كل آمالهم أن يُغير للمرة الأخيرة ولكن حاولته باءت بالفشل.

كل ما نعلم عن مصانع السفن في قرطاج هو أنها ضخمة وقاعة داخل المقاين ويحميها سور. ولا غرو أن العمال والحرفين الذين كانوا يشتغلون فيها هم من أفضل العمال والحرفين في القديم لأنهم يملكون خبرة واسعة. وقد ظل الفينيقيون وخاصة سكان جبل وصور يصنعون كل أساطيل العهود القديمة منذ أبعد مرحلة تاريخية حتى غزو الاسكندر.

وتشر التوراة إلى ان سليمان رغب في أن ينشيء أسطولًا في البحر الأحمر. فطلب الى الصواريخ ان يبنيوه له. كما بنى أيضاً أسطول ستحريب ملك أشور في القرن السابع قبل المسيح، وأسطول فرعون ينشاو. واحتفظ أسطول صور بكل نفوذة بالرغم من نبوءات حزقيال حتى استولى الاسكندر على المدينة.

وجمع الشهادات في كل العصور الماضية على أن أسطول صور وقرطاج هما من أشهر أساطيل العالم القديم. وأسطع برهان عن توفيق قرطاج في البحر هو «الرحلات البحرية». ونطلق هذه التسمية على
اكتشفاً في أعمال الحكومة الفونية وأُرسل إلينا المؤلفون اليونان جزءاً من أخبارهم. ويرجع تاريخ هاتين الرحلتين إلى مطلع القرن الرابع قبل المسيح.

وكان لا بد لنا أن ننتظر خمسة عشر قرناً حتى أتى الرحالة البرتغاليون وفاسكو دي غاما فقاموا بالرحلات البحرية الكبيرة وعمدوا إلى اكتشاف حدود العالم.

1- رحلة حملقون البحرية. - لقد سرد هذا القرطاجي عن رحلته رواية لم تصل إلينا ولكن أُطلِع عليها بعد عدّة قرون من ذلك شاعر لاتيني وأشار إليها في بعض آشاعره.

فبعد أن انطلق حملقون من قرطاج، قصد إلى قادس الواقعة على مسافة قريبة من مضيق جبل طارق. ومن هناك التف حول شواطئ اسبانية مبهرة نحو الشهاب، ثم أُوغل في المحيط مغمراً، وتقى بأرصفة من الطحلب والرمل ومضاب كثيف، ووصل بعد صعوبات كثيرة إلى بروتانية و كورنويا، وهما إلى إيرلندا. وهدفت هذه الرحلة الرسمية إلى إبعاد أسواق الرصاص والقصدير التي ساعدت القرطاجيين الذين يستلون على منتجه الفضّة في اسبانيا على احتكار جميع موارد المعادن الثمينة تقريباً في العالم الغربي.

2- رحلة حنون البحرية. - لخص قصة هذه الرحلة البحرية الطويلة مشجع حنون ووجدت محفورة على البرونز في معبد عين حمّون.
في قرطاج. ووصلت إليها ترجمة يونانية لآب كثره هذه العصه والنقش الذي يشيحها، وما ورد فيها من أسماء يستحيل علينا أن نتحقق منها ونان نعيّن أصحابها كل هذا - يجعل تفسيرها أمراً صعباً. ورغم ذلك يمكن أن نستخلص منها أن الملك الذي يعتبر رجل قرطاج الأول ويعمل اسم حنون ويتمنى إلى أسرة المهاجرين نظم في نهاية القرن الخامس قبل المسيح رحلة واسعة لها هدفان: تأسيس عدد من المستعمرات وتعزيز سوق الذهب.

انطلق حنون بصحبة ستين سفينة تنقل عدداً كبيراً من المسافرين من الرجال والنساء الذين ذهبا في هذه الرحلة إما قسراً وإما يجدوهون الوعد بعض المنافع، وهذا السبب الأخير أقرب إلى الواقع. وعلى الأرجح خضعت الآماكن التي وطأها حنون مع أصحابه منذ زمن طويل لنمو قرطاج الاقتصادي.

وفي أول جزء من الرحلة، بلغت البعثة رأس «سولوبلس» الذي يقال له حالياً رأس «كاتانة»، وشيّد حنون هناك ميناءً وأثار بعد ذلك بيئة سنة إجابة البحارة وجذبه إلى من حين إلى الآخر عبّاد سيد البحر، الاله «بوريزيدون». ولا شك أن المهاجرين الفينيقين المستوطنين هذا الموضع قد ساعدوا حنون على عمله قبل أن يشتمل بعضاً الرسمية. وبعد هذه الرحلة الاستطلاعية على الساحل المغربي، توقف في سبعة مراكز زراعية أو مدينة اختيارها ليقيم فيها مستوطنين جدداً من الذين
رافقوه في سفره.

وقبل رحلة حنين بعدة قرون امتدت رقابة المستوطنين الفينيقين إلى المغرب القديم، وتوقفت بعد ذلك بفضل القرطاجيين الجدد الذين استقرّوا فيه.

ومن المؤكد أن سكان لكسوس أبدوا هذا التنظيم الجديد للحياة الفونية كما حرصوا على التثبيط لها، فكانت زيارة حنين قد تُشيداً رسمياًً لمركز قد شيدوا القسم الأكبر منه.

وفي لكسوس، أعد حنين للجزء الثاني من رحلته يعاونه مستوطنو فينيقيون قد خبروا طرق إفريقية البحرية. ووقع حنين على هؤلاء للتأكد من وجهة سيره. وما لبث أن يعمم شطر "سرنيه" وهي جزيرة صغيرة تقع حسب زعم بعضهم في خليج "روي دي أرو" وتبعد أكثر إلى الجنوب كما يدعى أناس آخرون. وأنزل في هذه الجزيرة بعض الفينيقين الذين انصرفوا إلى مساعدة اللاكوسسيين على تنظيم تجارتهم ومهاربته. ثم انحدر حتى مصب نهر السنغال ومر بواقع المستوطنين الفينيقين الذين كانوا يتاجرون مع العبيد المنقَب من الذهب في "بابوك"، ثم صعد إلى "سرنيه" وشرع في رحلة طويلة أفضت به إلى داخل نهر غينية.

وحمل حنين وصحبه معهم بعد هذا الجزء الأخير من رحلتهم ذكريات تثير الفضول. ومن هذه الذكريات طلبة التام تام التي يستعملها العبيد على الساحل، وفيضان الكاميرون، وصيد الفوزلا.
وغيرها. وعلّق بميدان تانيت في قرطاج جلده امرأهتين قزمتين بمثابة غنيمتين، ووضع في ميدان بل حنون لوحة برونزية حُفرت عليها رواية الرحلة.

وانتهت هذه الرواية في القدمم غير أن الحقائق التي أوضحتها لم تُستفاد منها. أما الشعراء فقد رأوا هذه الأرض البعيدة والغريبة وطنا للوحش والآلهة فأفادت الرحلة الميتولوجية أكثر مما أفادت الجغرافيا.

وطاف القروطاجيون في بلاد أخرى ومنها خاصة جزيرة وادبررا وجزر الكاناري. وبعد سقوط قرطاج ظل سكان لكسوس قادس يرمن في هذه المناطق والمراعك التجارية البعيدة. ولكن بعد ان خرجت من حاية قرطاج وتنظيمها التجاري أقلموا عن ذلك لأن الرومان أخذوا يضايقونهم.

ويختلف مفهوم الرومان للاستعمار عن مفهوم قرطاج. هذه الأخيرة كانت تسعي قبل كل شيء إلى اتفاق بيضاء، فلذلك حاولت أن ترفع مستوى المعيشة لدى رعايا المستعمرات وأن تؤجل عنهم حاجات جديدة وأن تغنيهم. وهي لم تعتبر هؤلاء كعبيد عصاة وإمام كربائن. والحقيقة أن قرطاج لم تحتفظ لنفسها بمستعمرات بل بمناطق نفوذ اقتصادي.

ملاحظة. تُرجمت قصة رحلة حنون وعلّقة عليها «جزل» في مؤلفه «تاريخ إفريقية الشمالية القديم» في المجلد الأول. وساد الاعتقاد بأنه يستطيع أن تترجم ترجمة جديدة، بيد أن عكركوينو قد أُجز

88
ذلك في كتابه "المغرب القديم" الذي طبع في باريس وصدر عن دار غايمار للنشر سنة 1948. ومن هذا الكتاب استقينا جزءاً كبيراً من هذا المقطع.

5 - الزراعة

اهتم القرطاجيون بالزراعة، والكاتب الفونسي الوحيد الذي بلغنا جزء من مؤلفه هو ماغون الذي لقي كتابه "دراسة في علم الزراعة" شهرة كبيرة.

وشجع القرطاجيون الزراعة وعنوا بها فنمت المزروعات على السواحل التي تكون تونس الحالية، وأثارت اعجاب الرومان عندما وطروا أراض أفريقية.

وأفضل القرطاجيون جزئياً على سكان تونس الاصليين بالزراعات التي قامت عليها ثروة التونسيين والتي ما زالت تمذّهما بخيراتها: كزراعة الخضار والأشجار المثمرة، كالزنان والتين والزيتون وخصوصاً الكرمة. وقد اشتهرت حمر قروطاج في القديم ولاسيما خمرة العنب المختلف التي صُدّرت مع زيت الزيتون.

وزرع سكان البلاد الأصليين المحاصيل بوفرة. وفي الحقبة الرومانية أصبحت منطقة أفريقية أهراء لرودا واستخدم استولى قروطاج الجديدة في نقل القمح من أفريقية إلى روما. وغالباً ما سُمِرت على الألواح النقوشية الفونية المحاريث والسنايا وغيرها كما اكتشفت
في الريف أهrez تدل على أن أهم الزراعات في تونس ترجع إلى المرحلة الفينيقية.

6- تربية الموشي

انتشرت تربية الموشي في أملاك الأسر الغنية في ضواحي المدينة.

وكان يُرَبّ الموشي والبنك والأحصنة والبقر وخاصة الغنم ذا الأذى القصيرة الذي يرجع إلى أصل مغربي ويكثر في أيامنا أيضًا في قلب تونس.

7- صيد السمك

كانت الأسماك المتكاثرة في خليج تونس تتي بالجزء الأكبر من مئوية قروطاج. وأما الفائض على الاستهلاك المحلي منها فيعمد الى تقديده. وأنشأ الفونيون لهذه الغاية مصادًا ومستودعاً للأسماك المقدّدة في مناطق خاضعة لرقابتهم وبالتحديد داخل خليج "سيريت" وفي "جربة" وعث سواحل اسبانية.

وأما لب لد أول المستوطنين الصوريين الأصل الذين استقروا على سواحل تونس ان اكتشفوا الصدف المدعوم والموركس واستعملوا قسماً منه في صنع صبغة الأرجوان التي عرفت رواجًا كبيرًا في القديم واستغل الصوريون والصيدانيون مواقع صيد الموركس وماركّره تصنيعه التي امتدت على الساحل الفينيقي.

۱۰
8 - التجارة

تعد التجارة بالنسبة إلى قرطاجة مورد رزق رئيسي للقوة التي أثنتها لها إنشاء امبراطوريتها كما تعتبر بالنسبة إلى القرطاجيين وسيلة وغاية، فيما تمكنت المدينة من نشر الحضارة في المغرب والاستيطان في أسبانيا والنوبة والمقاومة بعد الحرب PUSH الثانية.

وبالتقدم مرفقة وأسطولا ولات إلى نظام سياسي واقتصادي يوافق تنظيمها التجاري الذي أصبح المفتاح السحري للحضارة القرطاجية.

ولا ريب ان هذا التنظيم المرتكز على مبدأ الانتاج والتبادل حقق لقرطاج نجاجاً مادياً ومعنوياً. ولم تنقطع رومة عن الغزو لتوفر معاشرها واعتمدت على فرض الضرائب وعلى المرابين بسبب فقدان الأنتاج لديها نفيرًا بينها راحت قرطاج تنتج وتبيع وتتويج. ولم تبلغ حاجاتها يومًا مقدار ما بلغته صادراتها ولم يعرف ميزانها التجاري العجز أبدًا. وأما زياتها فقد شملوا العالم المتحضر، وعندما تضاءل هذا العالم بالنسبة إلى حجم تجارتها شرعت تبحث في أفريقية وأسبانية عن منافذ جديدة لتصريف بضائعها وعن مصادر جديدة للمواد الأولية.

وتصدر قرطاج الخمور والحبوب وزيت الزيتون واللحوم المقدّسة والأرجلوان. واستخدم تجارها وملاحوها هذه البضائع كعملة في التبادل التجاري وتألفت أغلب حمولة سفينهم المصدرة من
المتوجات المصنعة.

ومن هذه المتوجات خاصة الآثاث، فقد انتشرت في العالم القديم طرق التجارين الفنون في وصل الخشب وفي نجره. وحملت هذه الطرق في اللغة الرومانية نفسها أساساً محتراجياً. ومن أهم الصدرات الفنية أصناف الخزف العادي، والقائم، والنسج، والمطرزة، والبسط، والطيب، واللحى، والآنية المبهرة، والمعادن الخام.

ويعتقد أن الحرفين الذين أمدّوا الاقتصاد الفني بانتاجهم قد لقوا الحياة والرعاية الفائقة وتمتعوا بمثوى معيشة مرتفع.

وانتشر الطرقات في جميع المراحيق كوسطاء في المقايضات التجارية الكبيرة وكان لهما مراحلون في أطراف العالم المعروف. ولذا قد لا يكن انتاج سيّد قرطاج ومستوطاناتها لتفسير غناها الإسطوري الذي يكلم عنه جميع المؤرخين القدماء.

ويرجع جزء من موارد قرطاج إلى غنى مواطنها لأن هذه المدينة لم تعمد إلى تأميّن التجارة والزراعة. وأما الجزء الآخر من هذه الموارد التي تصب بصورة رئيسية في خزينة الدولة فهو وليد استثمار مناجم الفضة في أسبانيا، ومناجم القصر في "كوزنوي" ومناجم الذهب في "بامبوك". وكانت الضرائب نادرة في قرطاج، ولكن الرسوم الجمركية التي فرضت على المراكب الكثيرة، الراسية في المراحيق تحت الرقابة الفنية. أسهمت أيضاً في الحفاظ على غنى المدينة.
الفصل السابع
الفنون والحرف

1- الهندسة المعمارية

نكاد نجهل كل شيء عن الهندسة المعمارية في قرطاج بالرغم من إسهاب المؤلفين القدماء وخاصة "أبيان" في وصف المدينة ويعود السبب في ذلك إلى عدم دقة هذا الوصف.

ولا يخفى علينا أن الأبنية الرسمية كانت جديرة بشهرة الجمهوريات وغناها فقد كُسبت بعض الهياكل بصفائح من الذهب.
ولم تبرز أعمال التنقيب إلا حقائق هزيلة جدًا تستلزم إجهاد المختلّة تمتلك هيئة المباني القرطاجية التي اندثرت معها في أغلب الأحيان.

ويبقى زخرف الألواح النقوشية الفنية المصدر الأكبر الذي يستنبط منه المعلومات، عدا بعض بقايا الأعمدة وبعض قطع الحصى المدهون.

وينبغي أن رمز البناء عند القرطاجيين لا يختلف عمومًا بكون الفينيقيين الذين عرفوا بهندستهم المعمارية وبعض مبانيهم الشهيرة فقد

93
عهد الملك سليمان إلى أخزام أحد الملوك صور بتشييد هيكل
أورشليم.

وتبنايا طرق البناء لدى القرطاجيين حسب الاستعمال الذي يُعاد
له المبني، فالأسوار والجدر السائدة وأرصفة الشواطئ وكل الأبنية
المعروسة للهجات القوية أو للأشكال الكبيرة تتكون من حجارة
صحبة مربعة الزوايا، قد رُصِفت بانتظام بعضها فوق بعض دون
ملاط. وقد يستعمل كل من هذه الحجارة لصق حجريين متشابهين
أصغر حجماً فيضغط عليها. ونجد مثل هذه الأبنية المشيدة بالحجر
الضخم في صور وصقلية وعند شاطئ قرطاج وفي جزيرة الإمارة.

ويختلف هذا النمط البنائي عن النمط المعتمد في الجدر الفونية
التي كشف عنها في تلة بيرسا، فهذه الجدر تتألف من قطع ضخمة
مربعة الزوايا تصل فيها بينها برصيف من الحجارة الصغيرة أو من
الحصى المخبولة مع الاستمت حتى يخفف من ثقل البناء. ويُعتقد بأن
الرومان قد استعملوا الطين اسمه بالاستمت الفونية، وهو خليط من
التراب والكلس يُستخدم في الأبنية الريفية. ومع أن الفينيقين قد
فصلوا المبنى ذات الجدران الضخمة الحجارة فإنهم عرفوا أيضًا
طريقة بناء الجدر والقباب من رصف الحجارة الصغيرة والباطون.
وينسب "بلين" إليهم عددًا كبيرًا من الحدود التي رآها في عصره في
اسبانيا والتي تتكون أسسها من كتل الباطون والطين كما تكونت أسس

94
مرأة صور خاصة من الباطون الصلب.
أما الحجر المستعمل غالباً في البناء في قرطاج فهو خشن اللمس
سهل التأكّل فلذا غطيته أكثر الباني بطلاء من الحصى وزيتت
بخارف مدهونة ومنحوتة.
عناصر الزخرفة. - إن نمط الزخرفة المعمارية هو خليط بصورة
أساسية أي مستوحى من طرائق زخرفية متنوعة.
فالآعمدة التي وصل إليها عدد كبير منها هي دائماً مقنّة وتتألف
من الحجارة المنحوتة والمحصصة أو من أنابيب من النحاس المشوي التي
تشبه المحاريب الفخاريّة الحالية وتستوي في داخلها على قليل من
الحجاره المرصوفة وتطلّة بطبقة كثيفة من الحصى المليئ والدهون
بعدّة ألوان.
وعْتُر في قرطاج على تيجان أعمدة. وتدرج هذه التيجان جميعاً
في نمط خليط فالبعض منها يضمّ عناصر زخرفية مصرية كالتيّوزر،
منسقة إلى جانب عناصر غير دقيقة مثل السّفيفية. ويتآثر البعض الآخر
بالنمط الإليوبي المعروف في اليونان الآسيوي. ولقد لاقت تيجان هذا
النوع الثاني رواجاً أكبر، وهي تتألف من زخارف حلوتين الشكل
ثالثان في أعلى العمود الملون. ويرمز من الزاوية السفلي للزخرف
الخليوبي زهرة أو برعم.
وُكِّشف في مذبح سلمنبو عن عدد كبير من النصب تقوم عند

90
النوايس ويتتّع عليها عمودان مستطيلان يخلوّان من الزخرفة في أغلب الأحيان ويسدان حرفًا تزئنه قناة من نمط مصري. ولقد أخذ الفينيقيون هذا النوع من الأعمدة المستطيلة النائمة عن المصريين واستعملوها في جميع البلدان التي حلّوا فيها. ونجد أحياناً قرصاً محكّماً أو صفّا من الأصال المتصبّة عوض هذه القناة التي تتقعر على شكل ربع دائرة وتلتوي إلى فوق وعلوها شريط مسطّح. وفي القرن الرابع قبل المسيح بُنِّيت هذه العناصر المنقوطة عن المصريين بخَرَف مقتبسة عن الفن المعماري اليوناني كالفاليز الذي بسَك يشك بيتاً وكرية وتأخاذد ثلاثية وأغصان ملونة كما يُريّن هذا الإفريز أيضاً بعض العناصر الشرقية التي تشبه الوردة أو السجّة وترافق عادة العناصر السابقة.

وتبدو مختلف عناصر الزخرفة القرطاجية غنية بأشكالها وألوانها ولكن تفتقر إلى الأصالة.

٢- المباني الجنازية

في القرن السابع اتخذ القبر هيئة بيت حقيقي تحت الأرض. فقد بُنيت الحجر المعدّد للدفن بالحجارة الجميلة وغطّيت سقف من البلاط المرصوف بشكل مستن. وكانت أحياناً هذه الحجر تحفر مباشرة في الصخر. في قبر بئر يراوح عمقه بين خمسة وسعة أمتار. وفي القرن الرابع والثالث قبل المسيح ازداد عمق هذه الآبار بلغ
أحياءًا عشرين متراً. ويؤدي كل بئر عادة إلى حُجرين تقع الواحدة منها فوق الأخرى، وتوضع الأجساد في داخلها على مقعد أو في ناوءوس بعد أن تلف بكفي، أو تمدد في نعش مهون باللون الأحمر. ولم تحتفظ هذه النعوش الخشبية في قرطاج ولم يخلص إليها سوى زخارفها الحديدية ومقابضها وبعض القطع منها. ويرد الميت بصورة استثنائية في ناوءوس من الحجر أو من الرخام اللؤلؤ والمنحوت وقد يدفن مع جواهره وبعض الآنية الفخارية التي تحتوي على أطعمة جامدة وسائل، ومع مصاح وباريق وأدوات زينة.

وبدو أن عادة حرق الأموات وحفظ رمادهم في وعاء داخل القبر قد سادت منذ القرن الرابع قبل المسيح، ولكن من الواضح أن كفاف الأجساد وحراقها عرف في قرطاج كما عرف في موئلة. وبدفن الأولاد عادة في جرار واسعة من الفخار الشوكي. ولم يحرق إلا الأطفال المضحى بهم، فحفظ رمادهم داخل جرار في مذبح سلبي. واكتشفت على وجه الأرض مدافن كثيرة لم تكن تحتوي سوى جسم أو جسمين وأثاث صغير. وتتبسي هذه المدافن إلى قرطاجين متوسطي الحال أما أفراد الطبقة الدنيا من الشعب فيقيرون في حفر عامة واسعة، ولقد ضمت إحدى هذه الحفر التي نُبشِّت في الجنوب الغربي من ناقة بيسا، مئات من الجثث.

واكتشفت بضع مئات من اللوحات النقوشية الجنائزية تصوَّر

-تاريخ قرطاج
الميت من ناحية الوجه وهو في وضع الصلاة فاتحاً كفيه وماداً راحتيه 
إلى الأمام. ولا يمثل اللوح سوى النصف الأعلى من الجسم ضمن 
مشكاة مستطيلة. ويظهر في أعلى هذا اللوح الذي تثبت قاعدته فوق 
القبر بواسطة الطين زخرفة مثلمة. وانتشار استعمال هذه الألواح 
الجنازية الصغيرة منذ القرن الرابع قبل المسيح حتى نهاية الحقبة 
الرومانية. ويمكن ان نفترض بأن آثاراً عظيمة كانت تتنصب فوق 
قبر الأسر القرطاجية الغنية. ومع ذلك، لم يبلغنا أي ضريح شبه 
الضريح النولي الشهير، ضريح «دوقاً».

وتعرّضت الناوسيس مثل كل الآثار القرطاجية التي تظهر فيها 
نزعة إلى التصنّع والتفنّن للتأثيرات المصرية واليونانية.

ويتخذ الناوس الحجري في بعض الأحيان هيئة مومياء كما في 
مصر فيأتي الغطاء على شكل جسم بشري قد تقلص فيه حجم 
الرأس واليدين والرجلين. ويتأثر صنع هذا الناوس أحياناً أخرى 
بالفن المعاري اليوناني فيتخذ شكلًا مستطيلة. ويظهر غطاؤه مسندًا 
وينتقل طرفاء الصغيران مثلّين مزخرفين لتتصق بزواياها قواعد 
مزينة.

واستخرج من مدفن «سانت مونيك» في قرطاج ناوسان يرجع 
عهدها إلى القرن الرابع قبل المسيح ويدوان من نمط مختلف 
ويتصفان بجمال حقيقي ونوعيان في متحف «لافيجري». ويلعبت
أحدها النظر أكثر من الآخر لأنه يصوّر في نقش نائي مستدير امرأة ممّددة على الغطاء ترتدي ثوباً كهنوئيًا ويغطي رأسها الصغير الذي يخلو جالسه من صبعة شخصية متميزة حجاب ذو أطراف مزينّة بصفّ من الشرارب. ويكسو هذه المرأة غلالة كتانية مثنيّة عند ثديها الأيمن. ويلتقي عند ركبتها جناحان طويلان مطليان وتمسك بيدها اليمنى حامية وبيدها اليسرى علبة حلي ويوتّح الناوس بكماله بالألوان الفاتحة.

وأما الناوس الآخر فيزّتنه نقش رجل رافق يلبس ثوباً طويلاً ويتلألّى وشاح من على كتفه الأيسر. وقد أرخى هذا الرجل حليته وأطل سهره، وبدت أساري وجهه معبرة. فلا ريب أنه كاهن إذ يحمل في يده اليسرى مجمرة بخور ورفع يده اليمنى إشارة إلى أنه يصلّي.

وهناك ناوس آخر: جدير بالاهتمام ترتسم على غطائه صورة امرأة محجبة في نقش نائي مستدير.

وعطر على وعاءين صغيرين يعلوهما غطاءان مزينان قد حفرت على أحدهما صورة كاهن وعلى الآخر تظهر صورة شخص في نقش نائي.

٣ - النحت

انتشر في نحت التماثيل في قواتلج ولكن التحف القيمة قد بيعت.
أو حُطّمت أو نهب عند الحصار. ونعلم أن «سيبيون إميليان» المتصرف حمل معه إلى روما عددًا كافٍ منها، كما نعلم أن القرطاجيين كانوا قد سلبوا المتحدثات من مدن صقلية. ومن هذه المدن أغريبنت وسجست. ويعتقد بأن الآثار الفنية قد كَرَت في قرطاج إذ عمل فيها كثير من الفنانين الذين هم في أغلب الأحيان يونانيين الأصل. ولم يصل إليها من أسสาว النحاتين سوى اسم «بوثوس» القرطاجي. وأما النماذج الوحيدان الباقيان من الحقبة الفنية، ومن الفن الفوني فقّلًا يظهر فيها الاكتبار، فهما نماذج رجلين يصلبان ويتكونان من عمودين أسطوانيين مسطّحين قليلاً من الجانب الرئيسي ولا يبرز فيها من الحجر غير الرأس والرجلين. ويتسم الوجه بمسحة من الذكورة ويكاد يخلو من أي تعبير. وأما الأنف فستقيم والشعر مبعد قليلاً. ولا يمكن أن نحكم من خلال هذين النماذجين على أهمية الفن الفوني في نحت النماذج.

۴- الأنصاب الجنائزية والألواح النقوشية

تعتبر الألوح النقوشية من أوسع آثار الحقبة الفنية انتشارًا إذا ما استنحت المصنوعات الخزفية.

فلا يُقصى منها حالياً أكثر من خمسة آلاف. وعلينا أن نميز بينها وبين الأنصاب الجنائزية الصغيرة التي تشبهها. وليست هذه الأنصاب في الحقيقة سوى ندوة تهدي إلى الآلهة بمناسبة تقديم
ذبيحة بشرية، وتوضع بقايا الذبيحة داخل جرة تدفن تحت النصب الذي يحمل أغلب الأحيان نقشاً إهدائياً موجهاً إلى الإلهة تانيت والإله بعل حموٍّ.

ومنذ تأسيس قرطاج حتى الحقبة الرومانية، أي منذ القرن التاسع حتى القرن الثاني قبل الميلاد، بقي الفنون يستعملون مذبح قرطاج الذي يقع على بعد بضعة أمتار من غرب المرفأين وتعود على أعمال التنقيب المنظمة التي أُجريت في استقصاء تاريخ الآثار من خلال تطور أشكالها وطرق استغلالها.

وتكون طبقة من الحجارة الصغيرة أو من الخرسانة الدقيقة أقدم الجرار المطمور في مذبح قرطاج والمحتبة على ضحايا الأولاد. وبعد ذلك بقليل، أخذ يرتفع فوق التقدم حجارة منحوتة على شكل مسلات وأنصاب. وفي الوقت نفسه، ظهرت الأنصاب الجنائزية المكوّنة من الكلاس الذي يخالطه الصدف. وتبدو هذه الآثار مرتبة الزوايا تقريباً، وبروح طولها بين ثلاثين سنتين وثمانية وخمسين ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ويظهر عليها زخرف ذو طابع مصري.

وتتّقسم الأنصاب الجنائزية إلى ثلاثة نماذج رئيسية تتميز ببعض الفوارق.

وتتخذ «الأنصاب الناوسية» كما يدل اسمها هيئة كنيسة.
صغيرة، ذات طابع مصري وهي مربعة الزوايا تتأين جانبيا الرئيسي مشكاة محيطة يعلوها إفريز وكورينش مصري يسندهما عمودان مستطيلان ناتكان قليلاً. ونرى داخل التجويف صورة إله أو حجر مقدّس أو مسلّة أو رسمًا على شكل مومياء تبين فوقه في أغلب الأحيان هلال.

وأما النموذج الثاني فهو «النصب المذبحي»، ويبقى طوله مرناً بل أكثر ويمثل على تجويف توضع فيه الجزء الذي تحتوي على النبيذ أو ينتمي ضمه حجر ما زالت آثار ترسخ فيه هذا التجويف بادية أحياناً. ويظهر أن هذا النوع من الأنصاب قد يوافقه بصورة أفضل اسم «النصب الساند».

وتبتخ أنصاب النموذج الثالث هيئة عرش إله. وهي قواعد مربعة يرتفع جانبيا الخلخلي على شكل مسدس يتصل يرفقين. ونلاحظ في وسطها تجويف معدّ ليرتكز فيه أسفل صورة الإله. وفي أغلب الأحيان تقوم في هذا التجويف مسلّة منحوتة من الكتلة الحجرية نفسها التي تتألف منها القاعدة.

كل هذه الأنصاب التي أحصي منها حالياً أكثر من ألف نصب تغطي غالبًا بطلاء من الجلد الملون. ولم يبق من ألوان هذه الأنصاب عند نشائها من التربة إلا بعض الأثار، وهي تخلي جميعًا من النقش باستثناء ثلاثة منها اكتشف أولاً في السلمبر أثناء أعمال
التنقيب التي قام بها الإميركيون سنة 1923 و هو يجعل على ظهره نقوشاً ترجع إلى حقبة متأخرة. وأما النصبات الآخرين فقد عثر عليها سنة 1942 في مدبح سلمبو في غضون أعمال التنقيب التي أجريت ستاس. وهذان النصبات هما من نوع الأنصاب الناوسية. و يبرز على القسم السفلي من جانبيها الرئيسي النمطي نفسه. ولقد بُرِّز جزء من هذا النمطي من أحد النصابين. وهذه النقوش أهمية مزدوجة إذ تساعدنا على ان تقابل بينها وبين النصوص الفينيقية ف ترجع بذلك إلى القرن السادس قبل المسيح الأنصاب التي كتب عليها وهي تعود من ناحية أخرى حتى ظهور اكتشافات جديدة، أقدم نصوص قروطاجية وتشير إلى ذبيحة مطلقة مقدمة لبعل فتوح بذلك أن العظام المخروقة والراسية في قعر مئات الجرارة في المذبح إنما هي عظام أولاد مضحى بهم لهذا الآلهة.

وتقصد هذه الأنصاب مثل كل الآثار التي عقبتها إلى الحفاظ على ذكر مهديها واعتبرت كذلك كمسكن للآلهة تجذبها إليه الذبيحة الضيّمة المقدّمة.

وإلى جانب هذه الأنصاب الجنائزية التي وصفناها نرى أحياناً الالواح التقوية مسطحة والمقرنة من أعلاها حيث يلتقي بها زخارفان. ومنذ القرن الرابع قبل المسيح، أخذ يظهر عليها نقش إهدائي أو زخرف محفور أو غالباً الآثان وثناً.
ويشمل النقش فيها عادة على إهداء لثانيت ويعبر حمون وعلى اسم المهدي وسلاطته وأحيانًا على إشارة إلى مهنته أو مهنة أجداده.
ويبلغ طول اللوح العادي خمسة ونصف متّغرًا وعرضه خمسة عشرة متّغرًا وكثافة ثمانية متّغرات. ولا تبرز الزخرفة إلا على صفحته الرئيسية ويبدو أعلاها مقزّماً أو على شكل مثلك يتصّل بطرفي قاعدته زخرفان. وتحت هذا المثل إفرز يتألف من عناصر هندسية ويستند على عمودين ثنائين ومستطيلين من النط الأيوني أو الخليط. ويظهر النقش بين هذين العمودين. وفي أسفل اللوح تكون مثنوياً جداً، يحمل عادة مدلولاً رمزياً يزيد من قيمته. وتتصنف أغلفة هذه الزينة بأهمية دينية يصعب إدراكانها. وأكثر هذه الرموز وردًا تلك التي تسمى "علامة ثانيت". وهي تركيب هندسي يتألف من مثلث ودائرة يفصل بينهما شريط أفيّ يرتكز إلى قمة المثلث (انظر الرسم المقابل). ويحوي جمل هذا الشكل بخيال شخص. ولا ريب أن القرطاجين قد نسبوا إلى هذه العلامة في مرحلة متأخرة قيمة تجسيمية. ويعتقد بأن هذا الرمز قد نقل عن المصريين لشيء بالصليب المصري المعروف الذي يعدّ أفضل رمز للحياة، لكن ذلك قليل الاحتمال، لأنه يوجد في قرطاج إلى جانب علامة ثانيت رسوم طبق الأصل عن الصليب المعروف. ومن الواضح أن القراءة الشكلية بين هذين الرمزين لا شك فيها كما أن الفينيقيين والفينيون قد عرفوا علامة الحياة المصرية واستعملوها وربما قمنوا مدلولها الخير بمدلول علامة
تانيت. ولا يمكن ارجاع الفوارق الطفيفة التي تظهر بصورة مستمرة بين العلامتين إلى الصدفة.

وفي اعتقادنا أن علامة تانيت تتألف من حجر مقدّس يمثل الميزة الأرضية لآلهة قرطاج إلى جانب الميزة النجمية المتمثلة في الشكل الدائري.

وتجسد هذه العلامة الزوجين بعل تانيت وترتسب على كل الآثار الدينية وعلى منتجات الفونيين التجارية.

ومن الرموز التي ترد مراراً المثال الذي يتخذ شكل قبّة، والصوعلان الذي يتألف من قضيب من الغار أو الزيتون وتحمل في أعلاه جناحين ويتلف حوله حيّان، والقرص الذي يعلو هلال والزخرف الذي يبدو على صورة نجمة مشعة، وكوكب الزهرة. وأما عناصر الزينة التي استخلصت من عالم النبات فليست نادرة، فزهور

105
اللوتس والورق القلبي الشكل رمز الزمن، وتأج الورق، كلها زخارف تلجم إلى الأسطورة الديونيسية التي تمكن في الأماكن بحياة أخرى طوباية للولد المضحي به، بينما تدخل الرمانة والغصون والسنابل إلى مبدأ خصب الآلهة.

وتتفش الأضاحي الحيوانية غالباً في أسفل اللوح. ومن هذه الحيوانات الخراف والكباش والعصافير والثيران. ويظهر إلى جانبها أدوات مع عدّة العبادة، ونجد أحياناً على اللوح صورة كاهن أمام المذبح وهو يقوم بخدمة النبيذ. وتعرض إحدى النقوش المتفتقة على اللوح رجلًا يرتدي ثوبًا طويلًا من الكتان الشفاف ويدخل طفلاً على ذراعه، ويتم ذلك الكاهن قبل الشروع في خدمة النبيذ. ونرى أيضاً امرأة ترق الخمر، وكاهنة أخرى كما نرى بعض الصور الإلهية المنحوتة في أعلى اللوح والتي يجسد بعضها امرأة تمسك بهلال وولدًا.

ولا شك أن هذه المرأة هي الآلهة تاينة.

وتتكل مجموعات هذه الرسوم القرطاجية تقوش تصوّر مراكتب ومحاريث وبعض الأدوات والآنية.

5- الخزفيات

تعدّ معرفتنا لخزفيات قرطاج كافية. وتعرض لنا آلاف الآثار المستخرجة من القبور والمفاخرات ومذبح سلمب صورة شبه كاملة عن هذه الصناعة.
ولا شك أن تصدير هذه المصنوعات قد ازدهر لأننا عثرنا على نماذج كثيرة منها في صقلية وسردينيا واسبانيا.

1- الآلية الفخارية الفنية. - لم يحاول القرطاجيون ان يقلدوا فيها الخزفيات اليونانية التي كشف عن نماذج كثيرة منها في القبور.
وبقيت الفخاريات في قرتاج من ضرورات الحياة اليومية وليس من أشياء الترف رغم قيمة بعضها. ولقد صنعت الآلية والأكواب والصحون والآجر التي تحتفظ فيها عظام الضحايا من الفخار الرمادي أو الأحمر المستخرج من المقاط القاعدة في قرتاج نفسها وعلى تلة "البلقيد" قرب تونس.

واكتشفت في المدينة فخاريات فنية، تحتل على غرف تكذَّبت فيها المصنوعات المجهزة، وعلى أخرى وُضعت فيها الآلية المصوغة على مثال ما دون شئ، وعلى فرن من القرميد الذي تتوسط ركزة مدختله الإسطوانية. وتحتَّ في هذه الدخنة الأوعية المعدَّة للشي والمصنوعة عادة من طينة جيدة دقيقة حسنة الشئ.

وفي مذبح سليمبو، في أعماق طبقات التراب التي يرجع عهدها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، اكتشفت أقدم فخاريات قرتاج، وأما القبور التي تعود إلى هذه المرحلة فلم يكشف عنها بعد. وتحمل هذه الآلية الفخارية أشكالاً ثلاثة مختلفة. وأكثر هذه الأشكال استعمالاً القارورة البيضاوية والمسطحة القهر والمزودة بعرايتين صغيرتين.

١٠٧
افقيتين تعلقتان بأعلى بطنها. ولن فخار هذه الفخارات أحمر، وطينتها دقيقة وحسن الشكل، مصغولة ومغطاة بطلاء أحمر أو أسود. وُرِسم على بطن الفخار و عنقها خطوط أفقية، تربط بينها خطوط أخرى عمودية موزعة في مجموعات مؤلفة من ثلاثة أو أربعة خطوط.

ويبعث هذا التزيين في الذهن صورة إفريز فيه زخرف من ثلاثة أحاديد يفصل بينها مسافات متساوية. وُعثر في "موتيقة" في سردينية على آنية شباهة بهذه الفخارات يرجع عهدها عادة إلى القرن الثامن قبل المسيح.

وأما الشكل الثاني فهو الإنان الصغير المستدير الذي تصل عنقه ببطنه عروة عمودية وهو مجهز من التزيين لكنه مطلي بدهان أبيض.

والشكل الأخير هو الوعاء الذي يسمى "الوعاء الشوكي" لأنه شبيه بزهرة هذا النبات عندما تبرز من أصلها. ويكثر هذا النوع من الفخاريات في مذبح سلبي وهو من طينة دقيقة وجميلة. حمراء قامة وتزيينه في أعلى عنقه وأعلى بطنه خطوط ملونة. ويدور عطفه طريليا وواسعاً ويزداد وسعه في أعلاه. ويلتبس طول هذا الوعاء خمساً وعشرين سنتيمتراً وقطره عشرين سنتيمتراً. وقد تثر بصورة استثنائية في أقدم مقابر "دراش" على بعض الآنية من هذه الأشكال الثلاثة التي أخذت تطوراً منذ القرن السابع حتى الخامس قبل المسيح.

وظهرت أنواع أخرى كالجزر الإجاصية الشكل، المجهزة في أعلاها
بغرى عمودية والمصنوعة بطريقة مبتكرة، فاسمّر استعمالها طولاً في قرطاج. وانتشرت الجرار الدقيقة القطر المؤلفة من طينة كثيفة وخشنة اللمس. وإلى جانب هذه الخزفيات نرى الصحن الصغيرة التي تستخدم كاغاطية، والأباريق ذات الوربة العريضة، والآنية الصغيرة المجهزة بعروة أو الخالية منها. وبعض الصحن السطحية أو المجوّة قليلاً التي تلتوي أطرافها نحو قاعدتها وهي مغطاة بطلاة مصقول عادة.

ظل القرطاجيون يستعملون هذه الفخاريات طولاً، لكن الآنية الخزفيّة كلها تقريباً قد أُتِت منذ القرن الرابع قبل المسيح على نمط واحد وأصبحت جزءًا بديعًا يضاوِية، مسطّحة القـُر رمادية اللون، عراها واسعة وعمودية تصل البطن بالعنق. وتُحتوي هذه الفخاريات كما في السابق على عظام الأ ولاد المخوارة أو عظام الحيوانات الصغيرة المقدّمة كذبائح لللACLE QA TAINIT وللله بعل حمّون. ورتفع عدد هذه الآنية المستخرجة من هذه الأمكنة المكرّسة للذبائح الكثيرة، إلى عشرات الآلاف.

ويضاف إلى الفخاريات الجنائزية الآنية التي استخدمت في العبادة والتي صُبّرت مماذجها على الألواح النقوشية. وهي ليست في الواقع سوى كؤوس ذات عروتين وأباريق ذات بليل نغلي الشكل وأوعية للنْعْف. وكانت بعض هذه الأواني من الخزف وبعضها
الآخر من الذهب والفضة.
وأما الفخاريات ذات الطابع النفسي كالأوعية وآنية السلطة والأكواب والصحون فقد كشف عنها في المدافن حيث وضعت فيها الأطعمة المقدّمة للميت. وتحل هذه الآنية عادة من الزخرف، وقد تلون أحياناً بعض اللمسات من اللون الأحمر القاتم أو الأحمر أو الأسود.
ومها انتشرت هذه الفخاريات إلى الابتكار فإنها لم تُعِرها الاتفاق، خصوصاً تلك التي صنعت في أقدم المراحل التاريخية وتميّزت بعض قطعها التي اتخذت هيئة إنسان أو حيوان. وأقدم هذه القطع الفخارية عُثر عليها في مذبح سلميوب وريّا جيء به من قبرص. وهناك نموذج خزفي آخر يأتي أيضاً من مذبح سلميوب ووعاء على شكل رجل.
وتُنذر الإشارة إلى وفاء بيئة «سفنكس» مُنْجح يلبس قبة طويلة ومقَرّنة. و«السفنكس» هو كائن خرافي له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدراً.
وينشِر كذلك إلى مجموعة من سبعة أكواب، مرصوفة في صف واحد، وزينة في جزئها الأوسط، وهي تكون قاعدة يتركز إليها رأس امرأة.
2- المصابيح. - نطق هذه التسمية في قرطاج، كما في كل

110
العصور القديمة، على وعاء صغير من الفخار المشوي يحتوي على زيت تغمس فيه فتيلة.

يتخذ أقدم هذه المصابيح شكل صدفة قد قلبت أطرافها وتقلّصت في ثلاثة مواضع على نحو أصبحت تؤلف معه عنقين تمر عبرها الفتيلة. وترتكز هذه المصابيح عادة على صحن صغير مثبتة فيها أو مستقلّة عنها. ولقد تطوّر شكلها لتتأثر النماذج المفقولة من اليوتانيون، وأصبحت تصنع منذ القرن الخامس قبل الميلاد على هيئة وعاء صغير مغلق في جزء الأعلى إغلاقاً شبه كامل، ومزود عند بطنه بعندق بارز. وتزين غالباً الأجزاء العليا من هذه المصابيح علامة تأتي.

3- التماثيل الصغيرة. في القرن السابع والسادس قبل المسيح انتشرت في قروطاج صناعة التماثيل الصغيرة التي لا يتجاوز علوها عشرين سنتيمتراً والتي تمثل امرأة موميائية الشكل. ولا يبرز من جملة التماثيل إلا الرأس وحده.

وبلغ قروطاج تأثير الصناعة اليونانية وخاصة صناعة ثاناغرة وميرينة فنتج عن ذلك في القرن اللاحق مجموعة من التماثيل الأنيقة، المدهونة بالألوان الزاهية، والتي تمثل جمهوراً من الآلهة الشرقية. ومن هذه التماثيل: إلهة ترتدي بُرداً ويزينها عقد مؤلف من عدة صوفات، ومثلاً رجال يلبس ثوبًا ويتسلد فوق كتفه لباس.
كهنوتٌ، وإلهة تمسك بحامة أو بولد، وغطيّ رأسها تاج طويل.

وليس هذه الصناعة متدّمة جدًا، فالحخار المستعمل فيها
رديء التلوين والشيء. وهناك تماثيل لا تهدف إلى خلق شعور في
مرهف، ولكنها تلعب دورًا في الطقوس الدينية والجنائزية التي لا
نعرفها حتى المعرفة.

وتمّة عدد من القوالب الحخارية المعدّة لصنع الكعك والمزوّدة
بتجاويف يتولد منها عناصر زخرفة دينية أو دينية. ويتجلّى من
خلال هذه الزخرفة تأثير الفن اليوناني. ومن هذه العناصر: فرسان،
ورأس امرأة فاغرة الفم وشعرها من الثعابين وأسماك، وجلران،
ودلافين وغيرها.

واشتهرت في قرطاج صناعة الأوجه التي ظهر فيها الابتكار إلى

أبعد حدّ.

٤ - الأوجه القرطاجية. - يبرز الابتكار في هذه الخزفيات
أكثر من غيرها. وتأتي الأوجه والتماثيل التي تصوّر النصف الأعلى من
النساء من أقدم قبور قرطاج، ويرجع عهدها إلى القرنين السابع
والسادس قبل المسيح.

وتؤلف تماثيل النساء النصفية مجموعة متناسقة، فهي جميعاً من
الحخار المشوي الأحمر، المصنوع من طينة كثيفة قليلاً. وهي تمثَّل
بصورة دائمة غيردماً نسائياً متشابهاً تقريباً: فالوجه مستدير
بيضوي، والعينان لوزيتان، والأنف مستقيم وطول قليلاً، والفم يميل إلى الابتسام، والشعر يغذى عند الجبهة ومنسدة إلى خلف الأذنين، ويزين الوجه بعلامات زرقاء أو حمراء ريا كانت وشومًها كما أنه يظهر باباساً طلقاً ويرجى بالتفاؤل. فهل صنعت هذه التماثيل لتسحر الأموات أو الشياطين التي قد تذكر راحة الموت؟

وغُرِ في اليونان وصحيلة على تماثيل شبيهة، بتجلي فيها الذوق الفني اليوناني إلا أنها لا تخلو من التأثير المصري في تفاصيل كثيرة منها.

وتصب أوجه الرجال في قوالب، ثم تُ绯 عليها بعض اللمسات. وهي تتألف مجموعة تختلف عن المجموعة السابقة اختلافاً كبيراً، وتبعد على العكس من التماثيل النصفية النسائية، عابسة، معذبة، بشعة أو مضحكة، يشق على المرء النظر إليها ويرفع عهدها جميعاً تقريباً، مثل التماثيل النصفية النسائية إلى القرن السابع والسادس قبل المسيح، وهي تنقسم إلى مجموعة كثيرة:

وتعرض المجموعة الأولى، وهي الأقدم، وجه الرجال لم ينبت عليها الشعر، أئفها طويلة فطساه، ثقوب عينيها واسعة منحنية، أفوامها متشنجة، ويرسم على جبهاتها شكل دائري يعلوه هلال.

وتتضمن المجموعة الثانية وجه شيخٍ مرد، تغطياً التجاعيد، وتتتمس بها أذانان انفرج ما بينهما وبين الرأس وتظهر عليها كشرة بارزة.

113 - تاريخ قرطاج
ويزني الرأس الأصلع زخرفاً.
وتتجسد مجموعة أخرى أوجهاً جمالية جداً يحيط بهمها الفاغر
تجعدي دائرة.
وتضم مجموعة أخرى وجوهاً ضاحكة ومتحية.
وهل هناك أخرىاً وجهان جميلان جداً، متشابهان، يمثلان وجه
رجل هادئ، صفحته مست getline، مزينة بلحية، وأنفه مستقيم
 طويل، عيناه لوزّتان، فنه كثيف، وشعره مجعد. وتغشي هذا
الوجه مسحة ذكاء ومكر وتبدل هويته الإنسانية على أنه ليس إبداعاً
فكرياً وحسب وإنما هو أيضاً صورة رجل قرطاجي. وتتعلق بأنف
هذين الوجهين حلقة، وهي زينة بقينا تعتبرها حتى اكتشافها خاصة
بالنساء في قرطاج.
ولقد زودت جميع هذه الأوجه المكتشفة، في ناحيتها الخلفية
بتقوب تعلقها بواطنها على حائط أو على باب، أو تثبت على وجه
ولد. وتعسر تعلقها على وجه رجل بالغالب لأنها كانت صغيرة. وهي
تستخدم لطرد الشياطين أو ربما لدفع أذاهم.

6 - الحلي
تضمّ أخرى مجموعات الحلي الشرقية المعروضة في المتاحف الكبيرة
بعض القطع الفينيقية. وفي إيطالية نفسها، تأتي أجمل الحلي

114
الفينيقية الصنع من قبور يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل المسيح.
ولا عجب إذا ما عثرنا في أقدم المدافن القرطاجية التي تعود إلى القرن السابع والسادس قبل الميلاد على عدد كبير من الحلي الذهبية والفضية. وأهم طريقتين اعتمدت في الصياغة هما: زخرفة إطار المسوبات بحبيبات، وفن التدريج.

وينطلق تسمية زخرفة الحبيبات على مجموعات من الحبوب الصغيرة المنظمة التي تصنع بواسطة مثقاش وتبرز على صفحة ملساء. ولقد ألقى الفينيقيون هذه الطريقة منذ العصور البعيدة. وهناك سبيكة مصدرها جبل، يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح، معرضة في متحف اللوفر وهي تقدم خير دليل على هذا النوع من الزخرفة. ويُسمَى فن معالجة صفحات معدنية بواسطة مطرقة، مع قلب محفور أو دون قالب، فن التطريز. ولقد صنع القرطاجيون حسب هذه الطريقة عدَّة صفات، ليست سوى وريقات ذهبية مزينة برسم حيوانات وسُعُفِّيات.

وأحد أثاث القبور يفتقر، بالرغم من اتساع شهرة قرطاج. ولا نستخلص من ذلك أن احتياطي الذهب قد انخفض لدى القرطاجيين بل إنهم أصبحوا يخرجون على احتراق التقاليد وأخذوا يقدِّمون لمواثم جلّها قيمة هزيلة.

غير أن المتاحف ما زالت تحتفظ بمجموعة قيمة من الأسوار
ويتألف العقود جميعها من عنانى زخرفي كثيرة جدًا ومتنوعة في الغالب، ككريات الذهب أو الزجاج، والتّماثل، وتماثيل الآلهة المتأثرة بالنُّقش المصري والصَّنعة من العظم أو الحجر أو المعدن أو طين الصوَّان.

وتعلّق المناجد المستديرة بواسطة حلقه بشريط. وهي ليست نادرة. وكان القرطاجيون يحملون عوضًا عنها حتماً يعتمد كثيرون. ويطبع هذا الخط عادة صور جملان على مثال ما عرفه المصريون، فال الصفحة المقَرَّة ترسم جُعلاً أما الصفحة المسطّحة فتحمل نقشاً أو خَرَفاً مخفورة. ويُثبت إلى الجِعل المصنوع من العقيق الأحمر أو من الفخار المطلبي بالبرتق صلاً حلقه من ذهب أو فضة يدخل فيها شريط.

وقد تكون هذه الحلقه أحياناً ضيقة جداً، فيحمل الخط وقثّداً في الإصبع. واستعملت للغاية نفسها خواتم ذهبي كثيرة يتكونن نقشها من ورقة ذهبيه محفورة.

ولقد وصل إلينا عدد كبير من بُرّات الأنف والخلايل والأِبْيَزَم والعتصاب والأقراط التي تعلّق في أغلب الأحيان بأذن واحدة. والحقيقة أن كل هذه الزينة تعدّ من المنتجات الأقلّ ترفاً.
بالرغم من أهميتها.
ولا شك أن شذور الذهب التي ما زالت تنتشر بعد أثني سنة على رمال الشواطئ حيث امتدت قرطاج القديمة هي أدلة على غنى الحلي الفنية من قطع المصاغ التي بلغتنا.
ولا تملك عن الصياغة الفنية ما يكفي لأخذ ضورة واضحة عنها. فالآثار القرطاجية قليلة بين أيدينا كأنها من النوع العادي ولدينا منها بعض الأباريق التي يحيط بأطرافها زخرف على شكل صلب، وكؤوس خالية من التخمير، وأحواض، وأوعية نادرة من أصل يوناني.
ولا تعرض لنا هذه الآثار سوى فكرة هزيلة عن الصياغة الفينيقية التي تغنى بها هوميروس وأثارت اهتمام سليمان. وضم كنّر «البارسديد» في قرطاج أكثر من مئتين وسبعين كأساً ذهبياً ووعاءٍ وإبريقاً. والحقيقة أن هذا الكنز، وزينة المعابد والمباني العامة، وكل الأموال العامة والخاصّة قد دفعت لرومة لتأثير الجزيرة الباهظة الناجمة عن خسارة الحروب كما أنها استخدمت لسد آخر النفقات التي احتاجت إليها المدينة المحاصرة.
1 - مواس الخلاقة. - هي شفرات رقيقة من معدن، تتخذ شكل فأس صغيرة. وتنتهي في أعلاها بقطعة معدنية على هيئة عصفور أو رأس بطة أو تمّ، وتعيد إلى الذهن صورة بعض شفرات
الفؤوس الصغيرة والقديمة، لا بل تذكّر بطريقة أوضح بالمواس المصرية. ونخيل إلى رفض التصوّر الأول بسبب طبيعة شفرة هذه الآلات واستحالة تزويدها بمقبض.

ومن جهة أخرى يدلّ غنى الزخرف الذي يزّن النصل على أن هذه المواس ليست ذات طابع نفسي وإنما لها صفة نذرية أو سحرية. فقد عُثر عليها في قرطاج في المقابر التي ترجع إلى القرن السابع وكانت في اغتيابها قليلة التنسيق. ومنذ القرن الرابع، أصبحت على العكس تُزين برسم أشخاص وعصابات ومشاهد طقسية قد تجلّى في بعض تفاصيلها التأثير المصري واليوناني ولكنها بقيت في حملها فونية إلى حد كبير.

وقد تدلّ هذه المواس السحرية المكتشفة في المدافن قرب أوجه الموتى على ضرورة حلق شعر الجسم كله أو جزء منه وذلك قبل أن يتمتع المرء بحياة أخرى سعيدة. ولم يعرف هذه العادة سوى بعض المطلمين على أسرار الدين. ولا يزال هذا الطقس منتشرًا عند بعض المسلمين ولا يمكننا نسبة أصوله الى القرطاجيين دون الاعتذار على مزيد من الأدلة.

2- صناعة الزجاج. - لا شك ان سكان صيدون وصور قرطاج قد حسوا طريقه صنع الزجاج وخاصة صناعة الشفاف منه بالرغم من أن ابتكاره يرجع الى المصريين. فالكريات الزجاجية هي
من العناصر التي يغلب انتظامها في العقود. وقد تنظم إلى جانب كريات الذهب فتبدو أكثر تألقاً. وتُجدَد الإشارة كذلك إلى أوجه صغيرة مصنوعة من عجين الزجاج.

٣- العاجيَّات. - يدخل العاج والعظام غالباً في أثاث القبور الأكبر قديماً في قرطاج، ويُستعملان في صنع الأمشاط والدبابيس والأساور والخواتم وعِلب الخيلى والتمائم الكثيرة ومُقابض المويا والسكاكين.

وُتدَّ العاج النخاع مع المعادن الثمينة والأرجوان من المواد الأولية التي تشتملها التجارة القرطاجية.

٧- الأثاث

نكاد نجلى كل شيء عن الأثاث. إلا أن بعض التمائم تعرض لنا هيئة عرش الآلهة والمقاعد التي لا ظهر لها ولا ذراعين، كما تمّل لنا كراسي ثابتة، واسعة، بسيطة، مزودة بظهر. وكذلك تقدّم لنا هذه التمائم فكرة عن الشكل المفترض لمقاعد الحقبة الفونية.

ومن جهة أخرى، كشفت أعمال التنقيب في "سِميرات" المدفن الفوني الواقع على الساحل التونسي، عن صناديق خشبيّة معدّة لتحفظ فيها عظام الأمور. ولقد استعمل مثل هذه الصناديق قبل ذلك داخل المنازل، يدلّنا على ذلك ما يحمله بعضها من آثار.
الاستهلاك والاصلاح. ويبلغ طول الصندوق تقريبا 180 سنتيمتراً، وعرضه 50 سنتيمتراً. وهو ثقيل الوزن يعلوه غطاء له منفصلات وقفل. ويدل وصل الخشب في هذه الصناديق على اتقان مدهش كما يدل على استعمال المسحاج والثقب والمبرد.
الفصل الثامن

قرطاج العاصمة الرومانية والبيزنطية

في سنة 146 قبل الميلاد، استولى «سيبيون» على قرطاج. بعد حصار دام ثلاث سنوات، ودمّر كل ما تجا من نار الحرب، بعد أن تلقيّ أمرًا بذلك من مجلس الشيوخ في روما. وهكذا لم يبق من المدينة العظيمة حجر على حجر.

وحبت اللعنة على أرض قرطاج، ومُنع من بناء عليها. وما كاد ينضب أربع وعشرون سنة حتى عصي «كابوس غرا كشوس» آلهة الحلم، وحاول أن يؤسس فيها مستعمرة. وغدت قرطاج بفضل موقعها الجغرافي، وأهميتها مرفأها، مفتاحًا لأفريقيا، فكانت تمر فيها طرق التجارة البحرية والبرية. أما موضعها الذي يعتبر ضرورياً للسيطرة على أفريقيا، فيبين لنا التناقض الواضح الذي وقع فيه الرومان عندما أعادوا بناءها.

وكان أن عاث اليوس والجموع فسادًا في روما، وزعت على الفقراء المعدمين والناقين المسابح الوعورة والمهمة التي تمت على الأرض القرطاجية الملونة، بمبادرة ديمقراطية، تهدف خاصية إلى
تخليص عاصمة الرومان منهم. وأبحر "غراكشوس" سنة 122 قبل الميلاد إلى قرطاج، يحبس فيه ثلاثة قضاة، ورافقه حسباً دلائل رجل، فنزل في تلك المنطقة، وأسواها بمستعمرة "جونون".

وجونون هو الاسم الروماني لشقيقة المدينة، الإلهة العظيمة التي أطلق عليها في الحقبة الفونية اسم "تانيت".

لكن الأشراف الرومان، أعداء الغراكشيين، والمناهضين لكل مبادرة ديمقراطية، نجحوا في أن يُلغوا بواسطة مجلس الشيوخ القوانين التي تنقّل على أنشاء هذه المستعمرة، إذ انها أول مستعمرة تقع ما وراء البحر.

ولم تلقّ محاولة إنشائها أيّ دعم، وبقيت تنمو بهدوءًا. ومع أن رفقاء "غراكشوس" لم يستفيدوا من المنافع التي تعود عادة إلى المستعمرات الرسمية، فإنهم استقروا في أرض قرطاج واستغلوها. ونُصْبِت نافذة التي أُنيِّخت بثقلها على المدينة الفونية. فهي تُحمل على الاعتقاد بأن قلبها نفسه، الواقع بين المرفأين و "بيريس"، بتي غير أهل. وأقام المُكثّفون الرومان طوال ثماني عشر عامًا في الضواحي وفي «مغارة» خصوصاً، إلى جانب بعض القرطاجيين الذين نجاوا من القتل، أو الذين كانوا في رحلة بعيدة عند حصار قرطاج. وانضم إلى هؤلاء تجار ينتمون إلى كل الجنسيات.

وقرر قيصر، في سنة 44 قبل الميلاد، أن يتبع عمل
"غراكسوس"، فجعل قرطاج مستعمرة، ومنح الجنود والأهالي، الذين أقبل بعضهم من "أوتيك" والمدن المجاورة، الأراضي غير الآهلة في قلب المدينة. وأعيد بناء قرطاج سنة 32 قبل المسيح، وتتألق نجمها طيلة قرون، وعرفت، بعد الصعوبات التي اعترضتها في أول عهدها، ازدهاراً عجبياً، بفضل موقعها الجغرافي، ونشاط مرفهها، وسيطرتها على التجارة الداخلية في أفريقية، وأصل سكانها.

وازدادت حركة التجارة البحرية فيها في وقت قصير، وأصبحت مراكب القمح الأفريقي الذي يزود رومة بجزء الأكبر من موادها تشحن في مرفأ قرطاج.

وشدد الإمبراطور "أدريانوس" الحب للعمران مسكنين فيها، وأمر بشق طريق جميل وإنشاء قناة عجيبة تبلغ طولها 120 كيلومتراً، لتنقل المياه من جبال "زغوان" إلى قلب المدينة، وتعدّ الحمّامات التي بنيت أو زُعمت على طلب من "انطونيوس".

ويحدثنا "أبوليو"، وهو من أشهر المواطنين القرطاجيين، بأن المدينة كانت ملأى بالقصور الفخمة والبيوت المزينة بالمعابد.

وفي سنة 186، خصّ الإمبراطور الروماني "كونود" قرطاج، باستطلاع يجري.

وهكذا بعد ثلاثة قرون من سقوط يصعب البوض منه، حافظت قرطاج على اسمها الفوني، وأخفقت محاولة تغييره مرّتين.
وفاقت روعة مبانيها مباني روما نفسها، واحتضنت في مرافقها اللذين أُعيد إنشاؤهما أسطولاً حريباً، ولاقى معبد الإلهة "جينون - كابستس« التي تسمى بالفونية تانيت شهرة عالمية. ونافست كاهناتها كاهنات "دلف" في استكشاف الغيب. ومع أن أفريقية قد أصبحت فها بعد غري راضية عن تزويج روما بالقمح، إلا أنها جادت بإنمبراطورين من أبنائها على عاصمتها الرومان، هما "سبتيوس سفيروس" و"ماكرين«.

وبدَّ الانعطاط والفروض في الإمبراطورية طوال القرن الثالث، فأثار ذلك في قرطاج، حيث وجد المتآمرون والمغتصبون أشياعاً وأعواناً. وفي سنة 311. عندما أراد "مكسيس" أن يعيد غزو أفريقية، انطلقت المقاومة ضدّه من قرطاج، فقمعها بصورة فظيعة. ولم يستطع قسطنطين أن يعيد الاستقرار، لأن الصراعات الدينية عقبت الصراعات السياسية.

وفي سنة 416، هاجم البربر الإمبراطورية، فاستولى "الآريكس" على روما، وخلفاً إلى قرطاج كل من سنجه له الوقت وتوقفت له الوسائل لاستجبار مركب. وأصبحت قرطاج غنية جدا. وغدت ملاذاً أخيراً للإمبراطورية الرومانية، فلذا تحولت إليها هياجات "الفاندل«، ودخلها "جينسريك" في سنة 429، وجعل منها عاصمة له. فحملت هذا النهر طيلة ستين عاماً، وقامت في ظل...
لاستعباد من التزايد الداخلي والاضطهاد.
وفي سنة 548، غزاها "بليزير" من جديد، وأخضعتها لسلطة الإمبراطورية البيزنطية. وهكذا فيها قسم كبير من السكان في حركات العصيان والطاعون. وأخذ تحميه يتأمل شيئاً فشيئاً بالرغم من الاهتمام الأباطرة بها. وفي سنة 696، بعد أن استولى العرب على القيروان، أرسلوا إليها "حسناً"، فلم يبق سوى مدينة كبيرة خالية من السكان، ولم يقابل في احتلالها وتدميرها وإخصابها سوى قليل من المشقة.
وبعد ألف سنة من ذلك، حوَّل بتاورتونو إيطالية قرطاج إلى مقلب ضخم، يستخدمون حجارته ورخامه، فأنّى ذلك إلى الأنداد وحالها.

1- الذين
بعد أن احتلَّ الذين مكانة هامة في الحياة الكنسية، عاد ليلعب دوراً أساسيًا في قرطاج الرومانية والبيزنطية.
وتبدأ أسماء الآلهة الكنسية القديمة، وأصبحت تأتيت "جونون كايلستس"، ولم تفقد أحداً من عبّادها، بل تكاثر أشياعها بين الرومان. وأطلق اسمها الروماني على مستعمرة الغراكشيين، وأكرم تتماثل في الكابيتول، وتبث معبدها الملجا الأخير للذين الوثني الرسمي، ولم يهدم إلا في سنة 426 بعد المسيح. وظلّ ينقطع حموّن يتكرّم في كل افريقية الرومانية، بعد أن عرف فيها باسم "ساتورن". ولم ينقطع

۱۲۵
الاف الناس عن تقديم الألواح النقوشية الكبيرة له، كما كان ذلك في المرحلة الفنية. وأما الذبائح البشرية، فقد استمرت في الخفاء، حتى وقت متأخر، مع أنها كانت محظورة كما نعلم.

وبالتالي عبادة «اسكولاب» محل عبادة أشمون. والواقع أن لا اختلاف بين هذين الالهين إلا في الاسم.

وتبُع الناس في قرطاج لاملة النصر فكتوريا، ولالأباطرة. واستقر في المدينة جاعة كبيرة من اليهود بعد تشيئهم، وما يؤكد ذلك مدفن يهودي من القرن الأول، اكتشف في «غامارت»، شبال المدينة.

وأما المسيحية فقد عرفت نهضة سريعة، وأصبحت كنيسة أفريقية في زمن قصير مساوية للكنيسة رومية ومنافسة لها.

ومنذ القرن الثاني، غدت الطائفة المسيحية في المدينة، وهي من أقدم الطوائف في أفريقيا، الأولى من حيث أحيائها وعدها ونوعها وجرأة مؤمنيها، على الرغم مما قاتل من اضطهادات. وشددت هذه منذ مطلع القرن الثالث، واستشهد الصليون في سنة 180، والقديسة «برابيو» ورفقاؤها في سنة 202. وقعت ملاحظة المسيحية من سنة 211 حتى سنة 250، وسرعان ما عادت بعد ذلك، فكان من أشهر الضحايا أسقف قرطاج القديس «سبريان» الذي استشهد سنة 258.

ومن أكبر المدافعين عن الدين المسيحي، «تيروليان».
القرطاجي، الذي عاش في القرن الثالث.

ونظمت الكنيسة المسيحية في قرطاج، واتخذ أسقفها لقب كبير أساقفة أفريقية. وفي سنة 400، اعتلى كرسي الأسقفية "أورياليس"، صديق القديس أوغسطينوس، وصاحب الذي لا يفارقه والذي كافح خلال سنين طويلة إلى جانبه. ولقد وعظ القديس أوغسطينوس مئات من المرّات في قرطاج ضد البدع الدوناتية والمانوية والبلاجيوسية.

وفي سنة 411، عقد في قرطاج اجتماع ضم أكثر من ستة مئة أسقف كاثوليكي ودوناني. وبدل هذا العدد على أهمية اكثريوس الكنيسة المسيحية في أفريقية وانتشارها فيها. وأقيم في المدينة من سنة 200 إلى سنة 494، اثنان وثلاثون جمعاً، دُعيت "بجمع قرطاج"، وجعلت من عاصمة القرطاجيين، في آخر عهد الإمبراطورية، مركزاً للمسيحية الشرقية، وأصبحت أساساً للنظام الكنسي المسيحي.

وضيّدت في قرطاج نفسها أثنتا عشرة كنيسة ترجع إلى هذه المرحلة التاريخية. وعندما استولى "بليزير" على المدينة عقب الاجتياح الفارنادالي، رمّم هذه الكنائس، وبعد ذلك بقليل سقطت قرطاج أمام الهجوم العربي غير أن شعلة المسيحية قد استمرّت فيها بعض الوقت ولكن ما لبث أن انتفأت قبل أن يأتي 127
ملك فرنسا، القديس لويس، الى تلة بيرسية القديمة حيث مات سنة 1270. وفي أيامنا هذه، ما زالت ترتفع عليها كاتدرائية.

2 - البُنيان

لم يبق من قرطاج الثانية سوى آثار قليلة اكتشف بعضها بفضل الأعمال التي بوشرت منذ زمن قصير، وأما بعضها الآخر فقد أزيلت الأنقاض عنه ولم يبق ذكر مواضعه كبيرًا.

واعتمد الرومان قواعد محددة في بناء مدينتهم توافق مفاهيمهم القانونية في تنظيم المدن وتوزيع الأراضي. وتعود هذه القواعد نظامًا مختلفين يناضبان حسبين زمنيتين ونُعتين من الاستعار (أَنْظَر الرسم المقابل). ولا شك أن مسح الأراضي الريفية في مستعمرة الغراكشين الأولى قد اتصفت بطابع زراعي فُقِيت على الأرض التي تأسست عليها مستعمرة جونونيا عام 122 قبل الميلاد. آثار تقسيمات طوبوغرافية. وتألف هذه التقسيمات من مُضْلِعات زراعية واسعة. تبلغ مساحة كل منها خمسين هكتارًا، وتوجه اتجاهاً شماليًا جنوبًا وتعتبر إلى شبه القلعة القروية القديمة وغربًا، من «الامالغأ» حتى سيدي بو سعيد وتغطي «المرسى» وتصل حتى «غامارت».

فالمباني والمحاجر التي مازالت قائمة تؤدي المعطيات التاريخية والطوبوغرافية لهذا الفرز الواسع للأراضي الزراعية التي تكوّنت منها المستعمرة الرومانية الأولى.

128
مسح قرطاج الرومانية

(كما جاء في كتاب س. سومانيه «مستعمرة جوليا القرطاجية»، سنة 1924، صفحة 136)

وأما المستعمرة الثانية فهي «جوليا - كرتاغو» التي أنشئت برغبة القيصر وعلى أمر من أوغستوس نحو سنة 35 قبل الميلاد (انظر الرسم في الأعلى).

وتقع هذه المستعمرة محل مدينة الفرنية التي حاربها «سيبيون» وهبطت عليها لعنة مجلس الشيوخ الروماني.

١ - تاريخ قرطاج

١٣٩
لا يمكن قبول الصدفة أن تتلاقى ثلاثة أطراف من المضلع الربيعي الذي يمثل مستعمرة "جوليا كرتاغو" مع مخطط المدينة الفنية الأولى. ويتكون رابع طرف، في المضلع الذي امتدت عليه المدينة المنخفضة، من الشاطئ.

والأراضي المفرزة في هذه المستعمرة صغيرة جداً فهي مبرّعة مساحة كل منها أربعون آرآ، تفصل بينهما شوارع عرضها سبعة أمتار وطولاً 1700 متر. ويعد في هذه المستعمرة طريقان رئيسيان، عرضهما أحد عشر متراً ونصف المتر، يلتقيان عند نقطة مركزية تقع وسط قلعة بريشة حيث يقوم حالياً صدر الكاتدرائية. ويقسم هذا الطريقان "جوليا كرتاغو" إلى أربعة مربيات كاملة، يحلف كل منها وحدة سكنية تشمل على مئة شخص.

وتقدم أعمال التنقيب دليلاً ساطعاً على صحة هذا التقسيم. فخارطة الجدار التي تتمدّد موازية لخطي الشارع، تؤكد المخطط الخارجي للأراضي المفرزة كما يدل على هذا المخطط بقايا الحذر الرومانية أو المباني المنصبة.

التحضيرات لم تجهز المدينة، في الحقبة الرومانية، بالحصن العسكرية، إلا في وقت متأخر جداً. ويفسر غياب الأسوار بالطابع الزراعي المنصرفي مستعمرة الغراكشين. أما المدينة بحصر المنفى فيرجح أن خوف الرومان الخبيث كان سبباً لعدم تحصينها بمنا طويلاً.
وفي منتصف القرن الخامس بعد الميلاد رأى أمبراطور بيزنطة، تيودوس الثاني، أن يبني جدرًا متيلاً لحاجة المدينة من البحر. ولا نكاد نعرف شيئاً عن مخطّط هذا السوق الذي فتحت فيه تسعة أبواب. وما زال نرى في أمكنا مختلفة بعض بقايا الجدر التي يمكننا أن نسمى إليها. ومن هذه البقايا، حائط ضخم يقع على السفوح الجنوبية من ثلة بيرسها وما انفلت يظهر للعيان. وفي أواخر القرن الماضي أشار المتبون في قطاع الاماكن وجود باب وجدل لم يبق منها شيء الآن.

١- الحمّامات. لا شك أن أهم أثر ما يزال مثالًا في المدينة الرومانية هو مجمع المباني التي يقال لها جامات أنطونين (انظر الخارطة في الصفحة 52 - 53).

ويقع هذا الأثر الذي يبلغ طوله بضع مئات من الأمتار على شاطئ البحر عند سفح ثلة برج جديد، شرق «دوعس». ويري التقليد أن أطنا من الرخام وعدداً كبيراً من الأعمدة قد نقلت منه لتشييد أبنية متوسطة كثيرة من بينها كاتدرائية بيزا. ويدعى ذلك مؤكدًا لأن أعمال التنقيب التي قامت بها إدارة الآثار التونسية منذ سنة 1945 ودفعت إلى النبش عن هذا البناء الضخم نشأ منتظماً وكاملًا تدل على الحفر التي أحدثها المنقبون، وبالباحثين عن الحجارة. لقد جازف هؤلاء أيضاً بحاكفة ليسروا الرخام الذي يكسو الجدران.
وفي كثير من الأحيان تسحق الأنقاض الضخمة المتساقطة من قباب الطبقة العليا للحمم交给 الغرف السفلية أو تُخياضها أحيانًا أخرى من الاندماج. وسرعان ما تُرفع الأنقاض عن هذه الغرف التي تصبح مكشوفة للعيان.

وتتشمل الطبقة السفلية التي تمتّد على مستوى سطح البحر على غرف واسعة كثيرة مواجهة له، تتجاوز مساحة كل منها 300 متر مربع. وتشكل جدرانها من الحجارّة الكبيرة، وزيّنها صفًا من الأعمدة، وبلغّها الخخام المُنحوت تحتًا غنيًا، غير أنه لم يبق من هذا التخليف سوى بعض القطع لأن هذا القسم من البناء قد نهبه الباحثون عن الحجارّة. وما زالت هذه الغرف سليمة من الداخل بسبب التراب الذي تراكم فيها وحفظها من السلب. وهناك غرفة مشهنة الأضلاع يبلغ قطرها عشرين وتستند إلى ركزة عند مركز المثمن وإلى ثمانية ركائز أخرى عند زواياها. وتضم هذه الغرف رواقين مترازين وتشتهر قبابها تسعة أمتار وتدعم في الطابق العلوي غرفة متدفّدة الزوايا. وبالإضافة إلى ذلك رفعت الأنقاض عن ثلاث غرف وطويلة تعلوها قنطرة نصف أسطوانية كما اكتشفت غرف أخرى.

ويمكن أن نشاهد في الطبقة الأولى غرفة مدفاة وحوضًا.

وما يدلنا على روعة هذا الأثر المتهدم أبوابه الفخمة وجدرانه التي
تتجاوز كثافتها أربعة أمتار وقطع رخامه الكثيرة وأقرانيه المزينه بزخرف يملأ أغصان مزهراً، وطيراً، وأقنتاً وأعمدة المسمى والمقننة وبعض رؤوس الرخام الرائعة التي تأتي من تماثيله، وأكسبه الفسيفسائية. ويوضح لنا هذا الأثر الذي تداعى الجزء الأكبر منه مقدار حجم المباني القرطاجية وغناها.

وكشف في قمة تلة الكرمل عن فرن أرضي يجعلنا نعتقد يوجد حمامات أخرى قائمة في قلب المدينة قد تكون حمامات كارجيليوس التي أشار إليها القديس أغسطينوس. وما يؤكد وجودها في هذه الأمكنة المرتفعة قناة تربط جبل الكرمل بالقناة الرئيسية.

2- خزانات المياه. تمتد خزانات برج جديد (أنظر الخارطة) على عقار كامل مفروض حسب المسح الروماني. وتدل حالتها الحاضرة على أن بناءها يرجع إلى الحقبة الرومانية. ولا يتعذر طول واجهتها الرئيسية حاليًا 35 م. وتعاقب هذه الخزانات فيصل عددها إلى ثمانية عشر، وتبدو مقيتة ويبلغ عمقها تسع أمتار وسعتها أربعين ألف متر مكعب من الماء كما أنها مغطاة برصف من الحجارة تعلوه طبقة من الاستمت الصلب جدًا. وقد رممت هذه الخزانات وأعيد استعمالها سنة 1888 نظراً لقدرتها على حفظ المياه. وهي تستخدم حالياً. كما في عهد أوريانوس، كخزان بلدي تحفظ فيه المياه.

١٣٣
ويعد بأن هذه الخزانات كانت تزود بالمياه حمامات أنطونين القريبة منها وربما اتصلت بالقناة الرئيسية. ولا يختلف الأمر مع خزانات لا مالغاء. فجمعية هذه الخزانات الفخمة الواقعة إلى الشمال الغربي من المدينة ترجع أيضاً إلى عهد أديانوس ويشمل أربعة وعشرين خزانًا وتظهر كبيرة الحجم إذ يبلغ طولها 816 مترًا وعرضها 8 أمتار. وقد أصبح الآن الاقتراب منها عسيرًا. واكتشفت أثناء أعمال التنقيب والبناء خزانات أخرى كثيرة نذكر منها تلك التي عثر عليها في بنيسة تحت الكاتدرائية، وعلى تلة الكرمل.

3- المسح وقاعة الغناء.- درر الفاندل هذين المبنىين المجاورين (انظر الخريطة) الذين يقعان على الشمالي الشرقي من المدينة. وكان المسح مزينًا أجمل تزيلين كما أن موقعه أصبح معروفًا.

4- السيرك والمدرج.- يشبه السيرك الواقع في غرب المدينة سيرك روما من حيث أبعاده ويجازغ طول ميدانه ثلاث مئة متر وقد يسع منه أكثر من ألفي مشاهد.

أما المدرج فتُقارب قياساته قياسات مدرج الكولизيو في روما. وعلى الرغم من قلّة آثاره الباقية، اكتشفت فيه ألف من النقوش وقطع النحت.

134
ونصف لنا هذا المدرج وصفًا دقيقًا رواية استشهاد القديسين
«بريتيت» و«فليسيته» داخل سوره.
وتدل بعض المزارع الرومانية المكتشفة في جواره على أن هذه
المنطقة البعيدة عن قلب المدينة كانت مأهولة بالسكان.
5 – المعابد. - لم يبق أي أثر من المعابد التي بلغت شهرتها من
خلال النصوص القديمة. واختلفت الآراء في أغلب الأحيان حول
تحديد موسعها.
ولقد بني معبد «أسكولاب» على قمة بيرسة كما شيد في الحقبة
الفونية على هذه التلّة، معبد أشمون.
وعند بناء دير الآباء البيض الذي يشهق في أيامنا جنوب
الكاتدرائية، على تلّة بيرسة، اكتشفت حين نكش أسسه مساحة
واسعة مبلطة وبعض قطع الأعمدة وجدار سور وباطية تحمل إهداء
لاسكولاب. ويستخلص من ذلك أن معبد هذا الآله كان يرتفع في
هذه المنطقة كما أقيم عليه على قلعة بيرسة معبد الإله الفوني أشمون.
واكتشف سنة 1948 إهداء لاسكولاب على قطعة ثقيلة من
الرخام عند قمة التلّة التي يقع عليها المسرح. وجعلنا ذلك على
الاعتقاد بوجود موقع جديد لهذا المعبد ربما يوضح التنبؤ هذا
الغموض. ويبدو أن معبد «الكونكورد» وربما أيضاً «الكابيتول»
كانت يقومون في مكان الكاتدرائية.
ويقع معبّد «السيرابيوم» المهدى إلى «سيرابيس» في الزاوية التي تتكوّن من الوقت الحاضر من الطريق المؤدّي إلى حمامات أنطونيون ومن خطّ القطار الكهربائي. ولم يبق حالياً منه أي أثر ظاهر. لكن التنقيب الذي أجري في هذه القطعة من الأرض كشف عن إهداءات كثيرة مقدمة لهذا الإله، وعن رأس سيرابيس موضوع الآن في متحف اللوفر، وعن فسيفساءات وغيرها.

وأما معبّد ساتورن فعليّنا البحث عنه في محلّ مذبح قرابط القديم في سلمبو، أو في جواره. فهذا المكان الذي ضمّ رماد النباتات المقدّمة لبعض حمّون طوال قرون طويلة غُرِّف فيه على عدد كبير من الألواح النحاسية التي كان يقّبّرها أعضاء الاكليروس لساتورن. وتأتي هذه الألواح النقوشية من الجزء الشرقي للمذبح ومن أعلى الطبقات الأرضية. وتؤكد هذه الاكتشافات تشابه بعث حمّون وساتورن.

والم نتمكن من العثور على معبّد ثانّي الذي أطلق عليها في الحقبة الرومانية اسم كايلستوس وأصبحت كا في العهد الفوقي ملكة لآلهة قرابط.

ويجدر البحث عن هذا المعبّد بين بيرة والبحر، في المكان الذي يقال له «درمارش»، حيث وجد «سانت ماري» ألفاً من الألواح النقوشية الفوقيّة المهدتة لهذه الآلهة وليعلّ.
وكما نعلم، أحاط بهذا المعبد سور واسع جداً وانتشرت شهرته حتى بقي بعد سائر مراكز الوثنية ولم يُهدم إلا في سنة 421 م على أثر أمر من قسطنطين. وفي هذه المرحلة التاريخية لا بل قبلها لوقت طويل، كان المسيحيون يسيطرون في قرطاج.

2- الكنيسة. كانت الكنيسة منتشرة في قرطاج، فقد نُبش في الوقت الحاضر بصورة جزئية عن سُئْ كنيسة ولكن الوثائق القديمة تشير الى وجود أكثر من اثنتي عشرة.

وتقع معظم الكنائس في قرطاج في الأحياء المنزوية عن قلب المدينة لا بل خارج سورها كما في كثير من المدن الرومانية الجزائرية. ويرجع ذلك، قبل صدور مرسوم قسطنطين، إلى تدابير أمنية والمصورة الحصول على أراض في قلب المدينة نظراً لارتفاع أسعارها وأهم بنى مسيحي في قرطاج هو ما اتفق على تسمية بكنيسة داموس الكرانية.

ولقد شيّدت هذه الكنيسة على إنشاءات وثنية سابقة، ويعود عهدها الى أواخر القرن الرابع وهو العصر المشرق لتاريخ المسيحية في قرطاج.

وتشمل هذه الكنيسة على فناها واسع نصف دائري يحيط به رواق يُستند الى أعمدة من الرخام الأسود. وفي آخر هذا الفناء يفتح مصلى يتخذ شكل ثلاث وريقات من النفل ويوحى على قبر شهيد 137
ويجاور غرفة مقيمة ويبقى خزان، ويقع في وسط القناة حوض ماء. ويبدو هذه الكنيسة القائمة في الجنوب الغربي مستطيلة واسعة يبلغ طولها 65 متراً وعرضها 45 متراً. وتنقسم باتجاه الطول إلى ثمانية صفوف من الأعمدة وتضم تسعة جوائن.

ويقطع جانبي عرضي الجانبي الرئيسي الذي لا يتجاوز عرضه 12.80 متراً وتؤلف معه صلباً لاتينياً. وما زالت الجوائحة المستطلبة التي تفصل بينها الركائز مائلة إلى الآن إلى جانب بعض قطع الغرانيت الرمادي المتبقية من الركائز. وفي وسط هذه الكنيسة المستطلبة، عند ملتقى الجانبي الرئيسي بالجانبي العرضي تبدو الركائز أكثر ضخامة فريًا لأنها كانت تحمل قبة. وما زالت ظاهرة في وسط الجانبي الرئيسي القواعد الأربعة للقلعة التي تعلو المذبح. وأما أعمدتها فكانت من الرخام الأخضر وتجانجا من الرخام الأبيض.

ويكون الجانحين الأخبار بمذبح في الجنوب وآخر في الغرب.

وتلتئص كنيسة أخرى يقال لها كنيسة بيت العاد بالواجهة الغربية للكنيسة السابقة، ويبلغ طولها 34 متراً وعرضها 24 متراً، ويقع بيت العاد في وسطها. ولم تحفظ كاسبتها من الانفجار لأنها بنيت بمادة رديئة. ولا زلت نرى فيها عرفا كثيرة كغرفة الباب والسكرستيّة والمصلى.

وأما كنيسة داموس الكريتية فهي مبني عرض مُبتَح

١٣٨
الابواب في جانبيه وواجهته وهو يشبه كنائس الشرق ويدكر بالكنائس السورية أكثر مما يذكر بالكنائس الغربية البدائية.

ويقام في غرب هذه الكنيسة دير فيه مصلَّيات وهياكل رُبّا كانت من بقاياه. وهناك أيضاً مدرسة وغرف كثيرة للاجتماع والولائم وربما المستدير يشير الفصول ويقع تحت سطح الأرض، في الجنوب الغربي من كنيسة بيت العidad.

وليس هذا البناء سوى حجرة دائرة، لا يتعدى حجمه الثلاثين متراً، قد حفرت في جذورها تسع مشاكل تفصل بينها أعمدة. وعلو هذه الحجرة قبّة لا تزال نرى بقايا منها. وترمّت فسيفساءات، ويمكن الوصول إليها بواسطة رواقين مجهّزين بدرجتين متقابلتين. وربما استعمل هذا البناء كبيت عاد إلى جانب ذلك الذي في الكنيسة المجاورة. وكان يحتوي على الأرجح على قبر شهيد وبقرب كثيرين من الكربيين الرومان الذين يُستعملون لديوبلسياوس وللقديسة كونستانتس. ويبدو في حالته الحاضرة المبنى الأفضل حفظاً والأبلغ تأثيراً من بين مباني قرطاج المسيحية.

ولقد عثر في الغرف التابعة له على نواويس كثيرة مزينة بزخارف تمثل الراعي الصالح ومشهد تكبير الأرغفة، كما نُعث على آلاف من النقوش والفسيفساءات والنقش البارزة. وبالرغم من هذه الوثائق الكثيرة لم يصل إلينا اسمه القديم.

139
وقع كنيسة «المايوروم» بين «سانت مونيك» و«المرسى»، خارج الأسوار، وتُعد الأقدم في قرطاج. ويشتمل داخلها على مبنى صغير يُقال له مبنى «الاعتراف». وتمضى هذه الكنيسة حسب النقوش رفات القديسةين بيرتيو» و«فيليسيته» اللتين استشهدت في قرطاج سنة ٢٠٢. ولقد أعيد بناؤها في الحقبة البيزنطية ثم دمرت بطريقة منظمة. ولا يمكننا أن نرى منها حالياً سوى قليل من الأثار، غير أنه قد شيد على مبنى الاعتراف مصلّى صغير حديث.

وفي سنة ١٩١٧، كشف عن كنيسة «سان سيريان» المتصبة قرب البحر على حدّ قول بروكوب. ويبدو موقعها جميلاً جدًا وتشمخ على هضبة يبلغ ارتفاعها أربعين متراً وتطلّ واجهتها على البحر ويتمدّ داخل هذه الواجهة فناء مستطيل. وتشمل هذه الكنيسة سبعأ جوانب ولا يتعدى طولها ستين متراً وعرضها خمسة وثلاثين متراً. وقد تم إنشاؤها، قبل وصول الفاندال، على مقبرة مسيحية. ويكّن ذلك القبور والنقوش. بيد أنه لم يعثر فيها على قبر القديس سيريان مع أنها تبدو مطابقة للكنيسة التي ورد وصفها في «اعترافات» القديس أغسطسوس والتي بُنيت على قبر الشهيد الأسقف ألشهير «سيريان».

وفي «بيرتوحة» قرب «المرسى»، اكتشفت مجموعة كبيرة من الآثار المسيحية تذكر منها مدافنًا ومصلّى وبيت عاد وكنية لم ترفع.
عنها الاتفاق بصورة كاملة ومجموعة من الفسيفساءات التي تمثل
على ثمانية ألواح سر القران.
ويفترض الأب "دولور" بأن مجموعة هذه الآثار قد شيدت
تكريماً للقديس "سبريان" في مكان استشهاده.
وأما كنيسة "دويس" فتألف من بنى ضخم يرجع إلى الحقبة
البيزنطية وتتوسط على خمسة جوامع وهيكل في كرسي الأسقف.
ويلحق بها مثل كنيسة القديس سبريان عدد من الغرف وثناء ويبت
عادة. ويعتقد جميع هذا البناء على مستطيل ببلغ طوله أربعين مترًا
وعرضه ثلاثين مترًا. ولقد بلَّطت هذه الكنيسة فسيفساء ثمين وزينت
بأعمدة من الرخام المتتوّع النقش واللون للمستخرج من الأزهار
المتهدمة.
وفي الطرف الآخر من المدينة، كشف غرب المرافئ في المكان
الذي يُقال له "بيركنيسة" عن كنيسة بيزنطية دبَّ فيها الخراب
واحتاطا بها قبور يرجح أنها أقدم منها.
وهناك مصلٌّ تحت سطح الأرض على المنحدر الجنوبي من تلة
بيروسا متصل بخزان ماء ومهيكل بلمحة جدارية وبرموز مسيحية. وكان
هذا المصل في الأصل مكانًا للحج وربّا أصبح بعد ذلك
مصل. وليس في الأصل سوى سجن استعمل على الأغلب
لاعتقال الشهداء.
وفي سنة 1901 اكتشف عند سفح تلة "الأوديون" دير يشتمل على رواق يحيط بساحة مبَّلِّطة وعلى كنيسة تزينها فسيفساءً بيزنطية. ويكل هذا الدير مجموعة الآثار المسيحية.
ولا يُعتبر هذا السرد للمبانى في قرطاجة الرومانية والبيزنطية تاماً إذا لم نذكر الزوار الكثيرة التي انتشرت في أمكنة كثيرة وخاصّة على هضبة الأوديون. وتؤلف هذه الزوار مع شوارعها و الخزاناتها ومحاربها مجموعة مدنية هامة. وقد زُنت بعض هذه الزوار الرومانية بفسيفسات شهيرة ما زالت اجتمعت قطعها حاليًا في متحف "باردو" قرب تونس. وتتلاّنا هذه المنازل التي يرجع معظمها إلى القرن الثالث والرابع، على حياة سكان قرطاج الرومانية.
وهناك كثير من التماثيل اليونانية والرومانية والنوايس وما يزيد على ثلاثين ألف نقش. وأما الشواهد الرئيسية على عظمة المدينة فقد جُمعت في متحفين جميلين هما متحف "باردو" ومتحف قرطاج.
والحقيقة أن مصر هذه المدينة قد ارتبط بشكل عجيب بقصص رومة التي بقيت تنافص القرطاجيين خلال الحروب الفونية الطويلة. وأصبح هؤلاء يدفعون لها الجزية. وفي سنة 146 قبل المسيح صارت قرطاج ضحية الرومان. ومع ذلك لم يمضى عشرون سنة حتى بُعثت فيها الحياة وأعاد إليها أعظم القيامة غناها. وسرعان ما تحوّلت بفضل قوتها الجديدة إلى منافسة لرومة في المجال الاقتصادي أولاً ثمً...
في المجال الديني كما غدت مفتاحاً لأفريقية، مصدر القمح وحاكت مبانیها من حيث كبرها مباني الرومان وذاعت شهرة أبنائها وجلس بعض منهم على عرش الإمبراطورية الرومانية ولاقت المسيحية في قرطاج استقبالاً لا يُضاهى وعُرف فيها عدد كبير من الشهداء واشتر أساقفتها الذين لم يخضعوا بسهولة لبابوات رومة ونبغ منها لاهوتيون وndefون عن الذين احترمتهم المسيحية جمعاء. وهكذا تأسست قرطاج قبل رومة بقليل وسقطت بعدها بقليل. فهل إن الواحدة لم تتمكن من العيش دون الأخرى؟
الخاتمة

إن الاكتشافات الأخيرة تجعلنا ندرك أهميّة دور الفينيقين والغونيين في حوض المتوسط، ولكنها لا توضح هذا الدور بصورة كاملة. من هنا، قد نشوء وجه تاريخ تطور الإنسانية الكلاسيكية، إذا قمنا دور هؤلاء على التجارة.

ولا شك أن أشهر ملاحي العالم القديم هم رجال أذكياء، لكن معاصرهم قد أساؤوا الحكم عليهم، لأنهم لم يفهموا. فلقد أوصلا الفونيين حسهم العملي، وحبهم للتقدّم، وعرفتهم للعالم إلى درجة من التطوّر الفكري، وإلى أساليب اجتماعية وسياسية تثير الاعجاب، لأنها أكثر تقدّمًا من أساليب معاصرهم، ولأنها تبدو عصرية.

وأما الدوق الجامبي عند القرطاجيين، فقد يتي فقيرًا، إذ اكتشفوا يجمع عناصر الزخرفة التي أخذوها عن الفن المصري حتى القرن السادس قبل المسيح، كما تقول بعد ذلك عن الفن اليوناني. واستعملوا هذه الأفكار المقتبسة حسب ذوقهم، ليزينوها المباني التي لم تصل إلينا إلا بشكل بحراً.

١٤٤
وعلُم أن أعمال أشهر النحاتين اليونان، قد زينت المباني العامة، وبلاطات قرطاج، مما يدل على أن القرارطيجيين كانوا يقدرون هذه الأعمال، رغم أنهم لم ينجوا آثارًا فنية. وهناك قليل من الفنانين الذين ولدوا من أصل فوني، إلا أن الحرفين الذين يصفون بالحسن العملي، والمهارة التقنية، انتشر تواً بأعداد لا حصر. وبلغتنا شرارة الصباغين والمطرزين والصائغين والتجارين في قرطاج، وأثارت دهشتنا جوهرة بعض متونهم التي عثرنا عليها.

وجمع الفونيين إلى جانب هذا الدوق الحرفي حب البحث العلمي، فلقد ضبطوا صناعة إسمنت صلب، وأتقنوا صنع أسلحة الحصار، لكي يدافعوا عن حياتهم، واخترعوا كذلك تأثير الشوارع. وهدفت رحلات حنون وحملوحك البحرانيان في الأصل إلى غايات اقتصادية، لكنها أفادت العلم والحضارة، وأبرزها جرئة رؤادها وحب الاستطلاع لديهم.

ويجب ألا ينسينا الجانب العملي في الذكاء الفوني، صفات أخرى وجوه أخرى تصف بها خلقهم، تخص منها بالذكر أن النهيان الشعر، فنحن نشتكي من خلال القصائد الدينية، والأساطير التي تدور حول جدود الفونيين، والتي كتبها على ألواح رأس شمرا، غنى الأدب الفني في الألف الثاني. ولقد دلت أعمال «بيرار» على الأصل الفني لأساطير يونانية كثيرة، منها الأوديسة، ونلمع من 10 - تاريخ قرطاج

145
خلال تلخيص رحلة حول القصص الخرافية المحركة حول البحارة القرطاجيين، ولكن لم يبلغنا من الأدب الفني غير أساطير "ماغون" و"شارون" و"كليثوماكي" بينًا بقيت آثارهم مجهولة لدينا. ولا نعرف شيئاً عن المخطوطات الفنية التي حرص سبئيون على بعثها في أنحاء أفريقية.

وقد كانت مفاهيم الفنون الاقتصادية والاستهلاكية متقدمة على المفاهيم التي سادت في زمنهم، ألف السنين. فقد رذلوا المؤسسات القوية على القوة، واهتموا بكسب زبائن محليين، ووفرًا لهم الازدهار، ورفعوا مستوى معيشتهم، ومنحوهم وسائل الإشراف، ولقنوا سكان البلاد الأصليين استخدام الزراعة الكثيفة كزراعة النبيذ والزيتون، وعلّموهم تنمية الحرف التي ما زالت حتى يامنا مصدر ثروة تونس.

وهذا ما دفع بالحقيقة والفلاسفة اليونان إلى القول بأن أشهر نظامين في العالم القديم، هما نظام قرطاج ونظام "لاسيديمونة".

وبالرغم من رغبة القرطاجيين الصريحة في السلام، فقد أظهروا في الحرب، عندما أجروا على خوضها، أرفع الفضائل العسكرية على مثال قواهم "مالكوس" وهملفار وهنيبعل. وأبدى الفنون عاطفة دينية عميقة. وتبدى ذيحة الأبكار لديهم على إيمانهم واعتقادهم بالحياة الأخرى.
وعرفت الكنيسة المسيحية الأفريقية في قرطاج، وفي المستوطنات الفونية القديمة، انتشاراً سريعاً ونشاطاً يرجع في الحقيقة إلى الخمرية الطيبة التي تركها الدين الفوني.

واتصل الفينيقيون بالحضارات الشرقية العظيمة بفضل موقعهم الجغرافي عند ملتقى الطرق الاقتصادية والعسكرية في الشرق. وعندما حلوا في أفريقية، والعالم الغربي في سبات، أنشأوا مدينة تفتتح فيها ذاكاؤهم وخبرتهم، دون أن يحوا بالشك والقلق للأمپراطوريات الشرقية والمصرية. فحققتها بذلك بغير متاعب ولا حروب نجاحاً اقتصادياً وسياسياً بارزاً.

ولم يقف في وجه هذا الاتحاد القرطاجي إلا أطاع رومة الاستعمارية المتزايدة، وجهل الشعوب البربرية. وما زالت مؤسسات قرطاج، السياسية ومفاهيمها الاقتصادية، ورغبتيها في السلام، تثير فينا الإعجاب، وتبدو قريبة من مؤسساتنا ومفاهيمنا ورغبتينا، رغم أنها تسبق عصرنا بألف سنة.
مقدمة المؤلفة للطبعة العربية
الدخل
الفصل الأول. - موقع خرائط الجغرافيا والتاريخي

الفصل الثاني. - المصادر

الفصل الثالث. - أصل المدينة وتأسيسها

1 - الطوبوغرافيا
2 - القرية
3 - المرفأ
41 44 45
148
الفصل الرابع. التاريخ
الفصل الخامس. الدين

1. المعبود
2. الأكليروس
3. العبادة

الفصل السادس. المؤسسات والعلاقات الخارجية

1. التنظيم السياسي
2. الحياة الاجتماعية
3. الجيش
4. البحرية
5. الزراعة
6. تربة المواشي
7. صيد السمك
8. التجارة

الفصل السابع. الفنون والحرف

1. الهندسة المعمارية
2. الماني الجنازية
3. النحت

149
الفصل الثامن- قرطاج الرومانية والبيزنطة

الخاتمة

144

الاثن

119

الحل

114

الخزفيات

106

الانصباب الجنائزية والألواح النقشية

100
Madeleine HOURS  
Conservateur des Musées Nationaux  
Chef du Laboratoire de Recherche des Musées de France

CARTHAGE

Traduction Arabe  
de  
Ibrahim EL-BALECH

EDITIONS OUIEIDAT  
Beyrouth - Paris
لقرطاج، في التاريخ، اسم متوجه ولأصحابها الفينيقين، اسم ذو ألق لا كأ في المألوف.

هذا الكتاب، مؤلفته هي المحافظة الأولى للمتاحف الوطنية في فرنسا، يحاول أن يوجز المسألة القرطاجية اليوم، ملتفًا لا الصعوبات التاريخية وحدها، بل إلى خلاصة أعمال المنتقبين التي حملت إليها نصوصًا وتماثلًا من أرض قرطاج نفسها، خلال حملات تنقيبة متتالية.

وإذا اسم قرطاجة (أو قرطاج كما بانت معروفة اليوم)، يعني "المدينة الجديدة" فلا أقل من أن تكون هذه المدينة الحالية، نصرة التاريخ، لا تشتيح مع الدهر، لأن المكتشفات الحالية ما زالت تطفئ آثارًا جديدة، تروي ما كان هذه الحاضرة من بحث، وما كان إليسًا التي من ضور، بطوله ونبل وشهامة.

إنه صفحه من التاريخ، شائعة، تعلمنا أن نغيب تاريخ الذين كتب أسلائفهم دائمًا صفحه أولى في كتب التاريخ والمؤلفة، التي هي في الوقت نفسه باحة علمية في المرحلات العلمية في فرنسا، ظهرت هذه الطبعة العربية بمقدمة بناء على طلب خاص من منشورات عواد.